أرجى آية في القرآن الكريم

جمع ودراسة وتوجيه

في ضوء القراءات القرآنية

الدكتور

نصر سعيد عبد المقصود حسن علي

الأستاذ المساعد في قسم القراءات في كلية القرآن الكريم

للقراءات وعلومها بطنطا

ملخص البحث

عنوانه: «أرجى آية في القرآن الكريم- جمع ودراسة وتوجيه- في ضوء القراءات القرآنية»، ومعنى أرجى: أكثرها رجاء، وإطماعًا في فضل الله تعالى وإحسانه، ولطفه وعفوه ومغفرته ورحمته.

ويتعلق هذا الموضوع بمبحث مهمٍّ من مباحث علوم القرآن، أطلق عليه السيوطي في كتابه «الإتقان»: «مفردات القرآن»، وهي: الآيات الملقَّبات، أي: ذوات الألقاب، كأرجى آية، وأخوف آية، ونحو ذلك، وهذا الباب من العلم النافع ابتدأه النبي ﷺ عندما لقَّب آية الكرسي بأنها: أعظم آية، ثم كان محلَّ عناية عددٍ من أجلاء الصحابة، منهم أبو بكر الصِّدّيق، وعمر بن الخطاب، وعثمان بن عفان، وعلي بن أبي طالب، وعبد الله بن مسعود، وأُبي بن كعب، وعبد الله بن عباس، وغيرهم، رضي الله عنهم أجمعين.

كما اهتم به كثير من المفسرين واللغويين، وذكروا بعض أقوال العلماء في «أرجى آية في القرآن الكريم»، غير أن أقوالهم مختلفة، وغير محصورة، وجلها يحتاج إلى بيان وجه الرجاء.

فعد الزركشي أحد عشر قولًا، وزاد السيوطي عليها أربعة، من دون شرح أو بيان في كثير منها، وتناثرت أقوال أخرى في بطون التفاسير، ولم أر- على حد علمي- من جمع الأقوال كلها، وبين أثر القراءات الواردة في المعنى كما هو في عملي هذا.

وقد جمعت في هذا البحث واحدًا وثلاثين قولًا، ووقفت مع تلك الآيات المباركة، محاولًا كشف الغطاء عن وجه كونها أرجى الآيات، وأثر القراءات القرآنية في المعنى.

فكان من الآيات ما يظهر فيها وجه الرجاء جليًا، ومنها ما يحتاج إلى فضل تدبر، ثم عرضت هذه الأقوال مرتبة حسب ورودها في المصحف الشريف، وقد تفاوتت درجتها في الرجاء، ولا يخلو قول منها من تعلق للباحث، وبيان وجه الرجاء أو القراءة.

والمنهج الذي اتخذه البحث ذو ثلاث شعب؛ حيث إنه اعتمد <u>المنهج الاستقرائي</u> في جميع أقوال العلماء، ومحاولة استقصائها وحصرها، ثم <u>المنهج الوصفي</u> في بيان وجه الرجاء، ومناقشة الآراء، وإلحاق القراءات القرآنية لبيان أثرها في المعنى بصفة عامة، وفي معنى الرجاء بصفة خاصة، ثم <u>المنهج التحليلي</u> في تحليل الآراء، ومعالجة الأقوال.

واقتضت طبيعة البحث أن يكون في مبحثين، يسبقهما مقدمة، ويلحقهما خاتمة، فالمقدمة فيها أهمية الموضوع، وأهدافه، وأسباب اختياره، وحدوده، ومنهجه، والدراسات السابقة، ومشكلة البحث.

والمبحث الأول: الرجاء حقيقة وأهدافه، وموقف العلماء منه.

والمبحث الثاني: أرجى آية في القرآن في ضوء القراءات القرآنية.

ومن أهم نتائج البحث:

١-أثر القراءات القرآنية (المتواترة والشاذة) في المعاني العامة، وفي معاني الرجاء خاصة.

٢- أن المعيار الحقيقي في اعتداد أرجى آية في القرآن هو النص على ذلك، واشتمالها على معاني الرحمة والعفو والمغفرة واللطف، ونحو ذلك، واتفاق وجه الرجاء فيها مع معناها وسياقها، وغلبة معنى الرجاء عند مقابلتها بآيات الترهيب.

٣- إعجاز القراءات القرآنية يتجلى في توجيهها لغويًّا مع ربطها بالسياق، ومقابلة معناها الأصيل مع صفحات الواقع المعاصر، وما فيها من جديد.

وأرجو أن أكون قد وُفقت إلى ما قصدتُ، وأحسنتُ فيما عَرَضْتُ، والحمد لله رب العالمين.

Abstract

The most hopeful verses in the Quran: collection, analysis and implications in the light of Quran recitations

The study sought to survey, study and analyze the tupe of verses that have been called in Suiti's Itqan "the labeled verses", which refer to special labels given to certain verses' such as the most fearful, the most hopeful verse, etc. In particular, the study sought to discuss the verses labeled as "hopeful", that is, the verses that give people the utmost hope in the bounties of Allah and His forgiveness.

The labeled verses have long attracted the attention of Scholars, especially when the prophet (pbuh) called the throne verse as the breatest verse in the Quran, and when the companions followed the path of the prophet (pbuh) in caring for the labeled verses. While different scholars paid attention the hopeful verses in the Quran, they didn't agree on a certain number or certain interpretation of hope based on different Quran recitations.

The present study adopted a mixed approach as follows, a deductive approach in cascading and collecting all the suggestions of previous scholars, a descriptive approach in dicussing the different facets of hope in the selested verses and their different recitations, and an analytical approach in discussing and commenting on the different views, The study thus consists of two major sections: a discussion of the concept of hope and scholar's views, and a discussion the most hopeful verses in the light of Quran recitations.

Results of the study showed the following: 1. Quran recitations (whether common or uncommon) have a remarkable effect in the general and the specific meanings of hope in the verses. 2. The correct standard for labeling a verse as one ot the most hopeful is its inclusion of vocabulary of mercy, forgiveness, kindness or tenderness, and the predominance of the meaning of hope when compared with the verses of intimidation. 3- The miracle of Quranic recitations is reflected in their linguistic orientation, based on the context, and comparing their original meaning with the modern meanings of the contemporary world.

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، الذي بسط يده للتائبين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد، النبي المصطفى، والرسول المجتبى، معلم الناس الخير، البشير النذير، والسراج المني، الذي أمره ربه بقوله: (وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ اللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا).

وبعدُ؛ فقد اهتم علماء الأمّة سلفًا وخلفًا بعلوم القرآن اهتماما عظيما، وألفوا في ذلك مؤلفات كثيرةً، خدموا بها كتاب الله تعالى، وبلَّغوا رسالاتِه وهداياتِه، فجمعوا وفصَّلوا، وشرحوا وبينوا، ومن ذلك ما وقفوا عليه "أرجى آية في القرآن"، واختلافهم في ذلك على أقوال كثيرة.

وأول من وقف على أرجى آية في القرآن هم الصحابة الكرام-رضي الله عنهم أجمعين- كما سيأتي في قصة اختلاف ابن عباس وعبد الله بن عمرو، رضي الله عنهما وعن أبويهما.

وقد جمعت في هذا البحث **واحدا وثلاثين قولا**، منها ما يظهر فيه وجه الرجاء جليًّا، ومنها ما يحتاج إلى فضل تدبر؛ لفهم وجه كونها أرجى آية، ومع هذا آثرت أن أعرض هذه الأقوال مرتبة حسب ورودها في المصحف الشريف؛ لإجماع الأمة على هذا الترتيب، ولتيسير استحضارها عند طلبها، لا بحسب درجتها في الرجاء؛ إذ أن قوة ظهور الرجاء يختلف لدى المتلقين، بحسب أهلية القلب للتلقي، وإسلام الوجه لله تعالى؛ وموافقة معاني الآيات ومراميها لأحوال الناس ومساعيها، مع إسناد كل قول لقائله، ولا يخلو قول منها من تعليق للباحث في دائرة توجيه الرجاء أوالقراءة.

فأحببت أن أجمع أقوالهم، وأتدبر معهم تلك الآيات المباركة، محاولًا كشفَ الغطاء عن وجه كونها أرجى الآيات، وأثر القراءات القرآنية في المعنى، فكان هذا البحث بعنوان:

(أرجى آية في القرآن الكريم- جمع ودراسة وتوجيه في ضوء القراءات القرآنية)

أهمية البحث وأهدافه:

يتعلق هذا الموضوع بمبحث مهمٌّ من مباحث علوم القرآن، وقد أطلق عليه السيوطي في كتابه "الإتقان": (مفردات القرآن)، و هي: الآيات الملقَّبات؛ أي: ذوات الألقاب؛ كأرجى آية، وأخوف آية، ونحو ذلك، وهذا الباب من العلم النافع ابتداه النبي ﷺ عندما لقَّب آية الكرسي بأنها: أعظمُ آية، ثم كان محلَّ عنايةِ عددٍ من أجلاء الصحابة، منهم: أبو بكر الصديق، وعمر بن الخطاب، وعثمان بن عفان، وعلي بن أبي طالب، وعبد الله بن مسعود، وأُبَي بن كعب، وعبد الله بن عباس، وغيرهم، رضي الله عنهم أجمعين.

كما اهتم به كثير من المفسرين واللغويين، غير أن أقوالهم في ذلك مختلفة، وغير محصورة، و جلها يحتاج إلى بيان وجه الرجاء، وأثر القراءات الواردة في معناها.

حدود البحث:

أولا- لما كان البحث متعلقا بمعنىً، ألا وهو:بلوغ الغاية في الرجاء اقتصر البحث على ما قيل عنه:إنه أرجى آية، وكلمة: أرجى ـ أفعل تفضيل من الرجاء، وتدل على المبالغة في الرجاء، أي أن الآية المذكورة هي أكثر الآيات رجاء، وأكثر مواضع القرآن إطماعا في فضل الله وإحسانه، وعفوه ومغفرته ورحمته، فلم ندخل آيات الرجاء الأخرى الكثيرة في القرآن.

ثانيا- كما اهتم البحث بالجزء المشتمل على هذا المعنى، وقد يكون ذلك الموضع آية كاملة أو أكثر، أو بعض آية، كما أن بعض المواضع قد تتكرر في القرآن، كما في آيتي النساء (إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء) (النساء/٤٨، ١١٦). وآيتي فصلت/٣٠، والأحقاف/١٣، (إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا).

ثالثا- كما اجتزأنا بالقراءات الواردة في هذا الجزء بالذات؛ حتى لا ندخل في البحث ما ليس منه، إلا إذا تعلقت بما قبلها في المعنى، فيلزم إيراد القراءة السابقة لربط المعنى.

رابعا- وأما الأقوال الواردة في أن هذه الآية أو تلك هي أرجى آية، فلم نأخذ إلا من العلماء المعروفين، المشهود لهم بالعلم في التفسير وعلوم القرآن من خلال مصنفاتهم، سواء أكانوا من القدماء كالزركشي والسيوطي وغيرهما، أم من المحدثين كالزحيلي والشعراوي والشنقيطي وغيرهم.

ولم نأخذ بما ذكره بعض المحدثين من آراء فردية؛ لبعدها عن التحقيق؛ حتى لا يُفتح المجالُ لكل قارئ أن يبدي رأيه، وتأثره برجاء آية بذاتها، وإن صح هذا في مجال العبادة وحسن الظن، فإنه بعيد عن دائرة البحث، ولذا لم يكن للباحث ترجيح بين الأراء، فضلا عن طرح رأي مستقل.

منهج البحث:

اقتضت طبيعة البحث أن يكون منهجه ذا ثلاث شعب؛ إذْ أن جمعَ أقوال العلماء، ومحاولة استقصائها وحصرها يستدعي المنهج الاستقرائي، ثم إن بيان وجه الرجاء فيها، ومناقشة الآراء تتطلب المنهج الوصفي، و إلحاق القراءات القرآنية لبيان أثرها في المعنى بصفة عامة، وفي معنى الرجاء بصفة خاصة، وتحليل الآراء، ومعالجة الأقوال يستلزم المنهج

التحليلي.

الدراسات السابقة:

ذكر الزركشي والسيوطي وكثيرممن ألف في علوم القرآن بعدهما أقوال العلماء في "أرجى آية في القرآن الكريم"، فعد الزركشي أحد عشر قولا، وزاد السيوطي عليها أربعة، من دون شرح أو بيان وجه الرجاء في كثير منها، وتناثرت أقوال أخرى في بطون التفاسير، ولم أر- على حد علمي- من جمع الأقوال كلها، وبين أثر القراءات الواردة في المعنى كما هو في عملي هذا.

مشكلة البحث:

تتلخص مشكلة البحث في الإجابة عن الأسئلة الآتية:

أولا- ما معنى "أرجى آية في القرآن"؟، وما ضابط ذلك؟

ثانيا- ما عدد أقوال العلماء في هذا الباب؟

ثالثا- ما القراءات الواردة في هذه الآيات؟، وما أثرها في المعنى؟

رابعا- ما رأي الباحث في المواضع التي اقترن فيها الرجاء بالخوف؟

واقتضت طبيعة البحث أن يكون في مبحثين، يسبقهما مقدمة، ويلحقهما خاتمة.

فالمقدمة فيها أهمية الموضوع، وأهدافه، و أسباب اختياره، وحدوده، ومنهجه، والدراسات السابقة، ومشكلة البحث.

والمبحث الأول بعنوان: الرجاء حقيقته وأهدافه، وموقف العلماء منه.

والمبحث الثاني: أرجى آية في القرآن في ضوء القراءات القرآنية.

الخاتمة، وفيها أهم نتائج البحث والتوصيات.

ثم ذيلت البحث بفهرس المصادر والمراجع، وفهرس آخر للموضوعات.

وأرجو أن أكون قد وُفِّقْتُ إلى ما قَصَدتُّ، و أحسنتُ فيما عَرَضْتُ، فإن أكنْ قد قصَّرْتُ وأخطأتُ فهذا جهد بشريٌّ، يؤخذ منه ويرد عليه، غير أني حَسَنُ الظن بالله تعالى أن يتقبله بقبول حسن**!** اللهمَّ لا تحرمنا ونحن ندعوك، ولا تخيبنا ونحن نرجوك، واجعلنا من أهل القرآن الذين هم أهلك وخاصتك يا أرحم الراحمين**!**

* * *

المبحث الأول

الرجاء حقيقته وأهدافه، وموقف العلماء منه

أولًا: معنى الرجاء في اللغة.

مشتق من "الرجا بوزن (فَتَى):ناحية البئر من أعلاها إلى أسفلها وحافَتَيها، وكل ناحية رجا، وأرجاء الوادي: نواحيه"(١)

والمعنى المحوري لمادة (الراء والجيم والحرف المعتل) يدور حول "إشراف الجسم القائم على مَهْواة فيها مادة نافعة"(٢)، ولفظ "مهواة"هنا وإن لم يتناسب-ظاهرا-مع الأمر المأمول، ولكنه صالح لاستجماع معاني مفردات التركيب اللغوي، ويمكن تفسيره هنا بالعمق مع إمكان الحصول.

والرَّجَاءُ: من الأَمَلِ نَقِيضُ اليَأْسِ مَمْدودٌ، رَجاهُ يَرْجوهُ رَجْوًا ورَجاءً ورَجاوَةً ومَرْجاةً ورَجاةً، وهمزَتُه منقلبة عن واوٍ بدليل ظُهورِها في رَجاوةٍ(٣).

ثانيا: الرجاء اصطلاحًا:

الرجاء: هو الطمع في فضل الله ورحمته(٤).

وقيل: الرجاء هو الإخبار عن تهيؤ وقوع أمر في المستقبل وقوعا مؤكدًا(٥).

وقال الجرجاني: "تعلق القلب بحصول محبوب في المستقبل(٦).

وقيل: الرجاء هو النظر إلى سعة رحمة الله(٧).

---

(١) ينظر:لسان العرب، لمحمد بن مكرم جمال الدين ابن منظور(ت: ٧١١هـ)، (رجو)٣١٠/١٤، الناشر: دار صادر- بيروت، ط/٣- ١٤١٤ هـ

(٢) المعجم الاشتقاقي المؤصل لألفاظ القرآن الكريم، لأستاذي الدكتور محمد حسن جبل /، مكتبة الآداب، القاهرة، ط/١، ٢٠١٠ (رجو)٧٥٨/٢.

(٣) لسان العرب، ١٤/ ٣٠٩.

(٤) حلية الأولياء، وطبقات الأصفياء، ١٠/ ١٠٩، لأبي نعيم أحمد بن عبد الله الأصبهاني (المتوفى: ٤٣٠هـ). الناشر: السعادة- مصر، ١٣٩٤هـ- ١٩٧٤م

(٥) التحرير والتنوير=«تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد» لمحمد الطاهر بن محمد ابن محمد الطاهر بن عاشور التونسي (ت: ١٣٩٣هـ)، ١/ ١٩٢: الدار التونسية للنشر- تونس: ١٩٨٤ هـ

(٦) التعريفات للشريف الجرجاني، تح/مجموعة من العلماء، دار الكتب العلمية-بيروت-لبنان، ط/الأولى، ١٤٠٣ه /١٩٨٣م. ١/ ١٤٦.

(٧) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين، محمد بن أبي بكر ابن قيم الجوزية (ت: ٧٥١هـ) ٢/ ٣٦ المحقق: محمد المعتصم بالله البغدادي، الناشر: دار الكتاب العربي- بيروت، الطبعة: الثالثة، ١٤١٦ هـ

وقيل: هو الاستبشار بجود الرب-تبارك وتعالى- وفضله، والارتياح لمطالعة كرمه سبحانه.

وقيل: هو الثقة بجود الرب تعالى([٨]).

وجميع هذه التعريفات متقاربة، وأرى أن أدقها وأحسنها تعريف الجرجاني، من حيث التصريح بمحل الرجاء وهو القلب، وإمكان الوقوع، وصفة الأمر المأمول في كونه محبوبا، وزمانه.

والعلاقة بين المعنى اللغوي والاصطلاحي: أن إشراف الجدار ونحوه على الماء يؤخذ منه الإشراف على نيل خير، وهذا هو الرجاء بمعنى الأمل والطمع في الخير وإمكان وقوعه.

ثالثا: الرّجاءُ في القرآن الكريم:

ورد الرجاء في القرآن الكريم في تسعة عشر موضعًا، وقد جاء على ستَّة أَوجه:

أَوّلها: بمعنى الخوف: ﴿ما لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا﴾ [نوح: ١٣]، أي ما لكم لا تخافون.

قلت:ووجهه أنه راجع إلى أصله الاشتقاقي، من حيث إن الاستشراف على مهواة عميقة، كالبئر ونحوه مما يحدث في النفس نوعا من الخوف والمهابة. قال أبو ذؤيب: [الطويل]:

إذا لسعته النَّحل لم يَرْجُ لسعها *** وخالفها في بيت نُوب عوامل

ومنه: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ حِسَابا﴾ [النبأ: ٢٧]، وقوله: ﴿مَن كَانَ يَرْجُو لِقَاء اللَّهِ﴾ [العنكبوت: ٥].وقد يكون الرجاء في هاتين الآيتين معناه الاعتقاد؛ لأنه أمر قلبي كالرجاء بمعنى الأمل.

الثاني: بمعنى الطمع: ﴿وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ﴾ [الزمر: ٩],﴿أُوْلَـئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللهِ وَاللّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [البقرة: ٢١٨].

الثالث: بمعنى توقُّع الثواب: ﴿يَرْجُونَ تِجَارَةً لَّن تَبُور﴾ [فاطر: ٢٩].

الرَّابع: الرّجا المقصور بمعنى الطَّرَف: ﴿وَالْمَلَكُ عَلَى أَرْجَائِهَا﴾ [الحاقة: ١٧].

الخامس: الرّجاء المهموز بمعنى الحبس: ﴿قَالُواْ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ﴾ [الأعراف: ١١١] أي: احبسه.

السَّادس: بمعنى التَّرك والتأْخير: ﴿تُرْجِي مَن تَشَاء مِنْهُنَّ﴾ [الأحزاب: ٥١] تؤَخّره،

١٩٩٦م.

([٨]) ينظر:المصدر السابق، ٢/ ٣٥، بتصرف.

﴿وَآخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ اللهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ [التوبة: ١٠٦](٩).

والأخيران من مادة (ر ج أ) أرجيت الأمر: أخرته.

وقال الراغب: رَجَا البئرِ والسماءِ وغيرِهِمَا: جانبها، والجمع أَرْجَاءٌ، قال تعالى: وَالْمَلَكُ عَلى أَرْجائِها [الحاقة/ ١٧]، والرَّجَاءُ ظنّ يقتضي حصول ما فيه مسرّة، وأَرْجَتِ النّاقة: دنا نتاجها، وحقيقته: جعلت لصاحبها رجاء في نفسها بقرب نتاجها(١٠).

رابعا: حقيقة الرجاء وعلامته:

الرجاء يتم من حال وعلم وعمل، فالعلم سبب يثمر الحال، والحال يقتضى العمل وكان الرجاء اسمًا من جملة الثلاثة، وبيانه أن كل ما يلاقيك من مكروه ومحبوب فينقسم إلى موجود في الحال وإلى موجودٍ فيما مضى وإلى منتظر في الاستقبال، فإذا خطر ببالك موجودٌ فيما مضى سمى ذكرًا وتذكرًا، وإن كان من خطر بقلبك موجودًا في الحال سمي وجدًا وذوقًا وإدراكًا وإنما سمي وجدًا؛ لأنها حالة تجدها من نفسك، وإن كان قد خطر ببالك وجود شيء في الاستقبال وغلب ذلك على قلبك سمي انتظارًا وتوقعًا، فإن كان المنتظر مكروهًا حصل منه ألم في القلب سمي خوفًا وإشفاقًا، وإن كان محبوبًا حصل من انتظاره وتعلق القلب به وإخطار وجوده بالبال لذة في القلب وارتياح سمي ذلك الارتياح رجاءً، فالرجاء هو ارتياح القلب لانتظار ما هو محبوب عنده(١١).

وسئل أحمد بن عاصم(١٢): ما علامة الرجاء في العبد؟ فقال: أن يكون إذا أحاط به الإحسان ألهم الشكر راجيًا لتمام النعمة من الله عليه في الدنيا والآخرة وتمام عفوه عنه في الآخرة.

وقال شاهُ الكرماني(١٣): علامة صحة الرجاء: حسن الطاعة(١٤).

---

(٩) ينظر:بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز، للفيروزآبادى (المتوفى: ٨١٧هـ) ٣/ ٥٠.، بتصرف. تحقيق: محمد علي النجار، الناشر: المجلس الأعلى للشئون الإسلامية- لجنة إحياء التراث الإسلامي، القاهرة عام النشر:جـ ١، ٢، ٣: ١٤١٦ هـ- ١٩٩٦ م.

(١٠) ينظر: المفردات، للراغب، (ص: ٣٤٦).

(١١) ينظر:إحياء علوم الدين، ٤/ ١٤٢.

(١٢) أَحْمد بن عَاصِم الْأَنْطَاكِي أَبُو عبد الله من عباد أهل الثغر، مَا لَهُ كثير حَدِيث يرجع إِلَيْهِ، كَانَ يُجَالس أَبَا إِسْحَاق الْفَزارِيّ ويوسف بن أَسْبَاط روى عَنهُ أَحْمد بن أَبى الْحوَاري. الثقات، لابن حبان، (٨/ ٢٠).

(١٣) هُوَ: شاه بن شُجَاع أَبُو الفوارس، كَانَ من أَوْلَاد الْمُلُوك، صحب أَبَا تُرَاب النخشبي وَأَبا عبد الله بن الذِّرَاع الْبَصْرِيّ وَأَبا عبيد البسري، وَكَانَ من أجلة الفتيان وَله رسالات مَشْهُورَة والمثلثة الَّتِي سَمَّاهَا مرْآة الْحُكَمَاء، ورد نيسابور فِي زِيَارَة أبي حَفْص وَمَعَهُ أَبُو عُثْمَان الْحِيرِي وَمَات قبل الثلاثمائة.

خامسا: قيمة الرجاء وفضله:

١- هو من سمات الأنبياء الداعين إلى الله رب العالمين قال إبراهيم-عليه السلام- كما ذكر الله تعالى: ﴿وَالَّذِي أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ﴾ [الشعراء: ٨٢].

٢- الرجاء من خصائص المؤمنين المجاهدين، قال تعالى: ﴿وَلاَ تَهِنُواْ فِي ابْتِغَاء الْقَوْمِ إِن تَكُونُواْ تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللهِ مَا لاَ يَرْجُونَ وَكَانَ اللهُ عَلِيمًا حَكِيما﴾ [النساء: ١٠٤] قال ابن كثير-رحمه الله-: "أي أنتم وإياهم سواءٌ فيما يصيبكم وإياهم من الجراح والآلام، ولكن أنتم ترجون من الله المثوبة والنصر والتأييد كما وعدكم إياه في كتابه وعلى لسان رسوله-ﷺ- وهو وعد حق وخبر صدق وهم لا يرجون شيئًا من ذلك فأنتم أولى بالجهاد منهم وأشد رغبة فيه وفي إقامة كلمة الله وإعلائها(١٥).

٣- والرجاء مما يتحلى به أهل العلم العارفون بالله- عز وجل-، قال تعالى: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاء اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُوا الْأَلْبَابِ﴾ [الزمر: ٩].

سادسا: الفرق بين الرجاء والتمني:

يفرق بينهما من جهتين: من جهة اللغة، ومن جهة العمل والحال والعبادة، فأما من جهة اللغة فالتمني هو طلب حصول الشيء المحبوب دون أن يكون لك طمع وترقب في حصوله.

فأما إذا كان قريب الحصول أو مترقب الوقوع فهو ترج وليس تمنيا.

والترجي من أقسام الإنشاء غير الطلبي، ولم يلحق الترجي بالإنشاء الطلبي؛ لأن الترجي ترقب حصول الشيء بخلاف التمني الذي هو طلب حصول الشيء.

و"ما استقر عند بعض الناس من أن التمني طلب المستحيل، والترجي طلب الممكن؛ خالٍ من الدقة؛ لأن التمني قد يكون لغير المستحيل، هذا من جهة، ومن جهة ثانية فإن الترجي ليس طلبا، وإنما هو ترقب حصول الشيء لذلك لم يعدوه من الإنشاء الطلبي.

إذن التمني طلب الشيء المحبوب، وقد يكون ممكنا، وقد يكون مستحيلا، فالنفس كثيرا ما تطلب المستحيل، فإذا كان الشيء المتمنى ممكنا، فيجب أن لا يكون مما تتوقعه نفسك؛ لأنك إذا توقعته كان ترجيا"(١٦).

---

(١٤)مدارج السالكين، ٢/ ٣٦.

(١٥)تفسير ابن كثير، ١/ ٧٣١.

(١٦)ينظر:البلاغة فنونها وأفنانها، علم البيان والبديع، د.فضل حسن عباس، ١٥٦، بتصرف، ط/ الرابعة ١٤١٧ هـ / ١٩٩٧م، الناشر: دار الفرقان للنشر والتوزيع ـ الأردن.

ومن جهة العمل والعبادة: التمني يكون مع الكسل ولا يسلك بصاحبه طريق الجد والاجتهاد، والرجاء يكون مع بذل الجهد وحسن التوكل.

فالأول: كحال من يتمنى أن يكون له أرضٌ يبذرها ويأخذ زرعها.

والثاني: كحال من يشق أرضه ويفلحها ويبذرها ويرجو طلوع الزرع؛ ولهذا أجمع العارفون على أن الرجاء لا يصح إلا مع العمل(١٧).

قال الغزالي-رحمه الله-: "وإن لم تكن الأسباب معلومة الوجود ولا معلومة الانتقاء فاسم التمني أصدق على انتظاره؛ لأنه انتظار من غير سبب"(١٨).

سابعا: الفرق بين الرجاء والغرور:

الرجاء ثلاثة أنواع: نوعان محمودان ونوع غرور مذموم.

فالأولان:رجاء رجل عمل بطاعة الله على نور من الله فهو راج لثوابه، ورجلٌ أذنب ذنوبًا ثم تاب منها فهو راجٍ لمغفرة الله تعالى وعفوه وإحسانه وجوده وحلمه وكرمه.

والثالث: رجلٌ متمادٍ في التفريط والخطايا يرجو رحمة الله بلا عملٍ فهذا هو الغرور والتمني والرجاء الكاذب(١٩).

المحبوب المتوقع لا بد وأن يكون له سبب، فإن كان انتظاره لأجل حصول أكثر أسبابه فالرجاء عليه صادق، وإن كان ذلك انتظارًا مع انخرام أسبابه واضطرابها فاسم الغرور والحمق عليه أصدق من اسم الرجاء، قال يحيى بن معاذ: من أعظم الاغترار عندي التمادي في الذنوب مع رجاء العفو من غير ندامة، وتوقع القرب من الله-تعالى- بغير طاعة، وانتظار زرع الجنة ببذر النار، وطلب دار المطيعين بالمعاصي، وانتظار الجزاء بغير عمل، والتمني على الله عز وجل مع الإفراط.

ترجو النجاة ولم تسلك مسالكها *** إن السفينة لا تجري على اليبس(٢٠)

والرجاء في رحمة الله سبحانه وتعالى من الأمور التي أمرنا بها، لكن الرجاء لابد أن يستتبع العمل، أما الرجاء الذي لا يستتبع عملًا فهذا غرور كما قال الله: {وَغَرَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ} [الحديد:١٤]، فالرجاء يطلق عليه رجاء إذا اقترن به عمل وإلا فهو أماني وأحلام.

---

(١٧) مدارج السالكين، ٢/ ٣٥.

(١٨)إحياء علوم الدين، ٤/ ١٤٣.

(١٩) مدارج السالكين، ٢/ ٣٦.

(٢٠)إحياء علوم الدين، ٤/ ١٤٣.

.

يقول الحسن البصري: ليس الإيمان بالتمني ولا بالتحلي، ولكن ما وقر في القلب وصدقه العمل، وإن قومًا خرجوا من الدنيا ولا حسنة لهم، قالوا: نحن نحسن الظن بالله، وكذبوا! لو أحسنوا الظن لأحسنوا العمل.

يقول سبحانه وتعالى: {إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَنْ تَبُورَ} [فاطر:٢٩]، لم يصفهم برجاء إلا بعد العمل الصالح، فالعمل أولا ثم الطمع في رحمة الله، ورجاء عفوه ومغفرته.

ثامنا: فوائد الرجاء:

من فوائد الرجاء ما ذكره ابن القيم-رحمه الله-:

١-منها: إظهار العبودية والفاقة والحاجة إلى ما يرجوه من ربه ويستشرفه من إحسانه وأنه لا يستغني عن فضله وإحسانه طرفة عين.

٢-ومنها: أنه سبحانه يحب من عباده أن يؤملوه ويرجوه ويسألوه من فضله لأنه الملك الحق الجواد أجود من سئل وأوسع من أعطى.

٣--ومنها: أن الرجاء حادٍ يحدو به في سيره إلى الله ويطيب له المسير ويحثه عليه ويبعثه على ملازمته.

٤-ومنها: أن الرجاء يطرحه على عتبة المحبة ويلقيه في دهليزها فإنه كلما اشتد رجاؤه وحصل له ما يرجوه ازداد حبا لله تعالى وشكرا له ورضى به وعنه.

٥- أنه يبعثه على أعلى المقامات وهو مقام الشكر الذي هو خلاصة العبودية فإنه إذا حصل له مرجوه كان أدعى لشكره.

٦- أنه يوجب له المزيد من معرفة الله وأسمائه ومعانيها والتعلق بها فإن الراجي متعلق بأسمائه الحسنى متعبد بها وداع.

٧- أن العبد إذا تعلق قلبه برجاء ربه فأعطاه ما رجاه كان ذلك ألطف موقعًا، وأحلى عند العبد وأبلغ من حصول ما لم يرجه([٢١]).

﴿أُولَـئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا﴾ [الإسراء: ٥٧].

ثم إن الخوف وحده لا يُحرِّك العبد، وإنما يحرِّكه الحب، ويزعِجه الخوف، ويَحدوه

([٢١]) مدارج السالكين، ٢/ ٥٠- ٥١، باختصار.

الرجاء.

لولا التَّعلُّــقُ بالرجــاء تَقطَّــعتْ	نَفْــس المُحبِّ تَحــسُّرًا وتَمزُّقا
وكذاك لولا بَـــردُه بحــــرارة الْ	أكــبادِ ذابتْ بالحجـــاب تَحرُّقا
لولا الرجا يَحدو المَطيَّ لما سَرتْ	بحُمولــها لديـــارهم تَرجُو اللّقا

٨- الراجون ثواب الله هم الذين يؤدون ما أمر الله به وينتهون عما نهى الله عنه، قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَّن تَبُورَ﴾ [فاطر: ٢٩], وقال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاء رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ [الكهف: ١١٠].

٩- إذا لم يرجُ العبدُ ربَّه وثوابَه فإنه أبعد ما يكون عن طاعة الله، وهم المعرضون عن الاستجابة لداعي الإيمان، وهم أصحاب الشكوك وإثارة الشبهات والشروط الدالة على كفرهم وجحودهم، قال تعالى: ﴿إَنَّ الَّذِينَ لاَ يَرْجُونَ لِقَاءنَا وَرَضُواْ بِالْحَياةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّواْ بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ﴾ [يونس: ٧], وقال تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لاَ يَرْجُونَ لِقَاءنَا ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِن تِلْقَاء نَفْسِي إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ مَا يُوحَى إِلَيَّ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [يونس: ١٥], وقال-عز وجل-: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءنَا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَائِكَةُ أَوْ نَرَى رَبَّنَا لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْ عُتُوًّا كَبِيرًا﴾ [الفرقان: ٢١].

١٠-من لم يرج الله فإن الله توعده بنار الجحيم، قال رب العالمين: ﴿وَلَوْ يُعَجِّلُ اللّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجَالَهُم بِالْخَيْرِ لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ فَنَذَرُ الَّذِينَ لاَ يَرْجُونَ لِقَاءنَا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [يونس: ١١]وقال تعالى عن سبب تعذيب الطاغين في نار السعير وخلودهم فيها: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ حِسَابًا﴾ [النبأ: ٢٧].

١١- الرجاء حادٍ يحدو أصحابه إلى التأسي بالحبيب محمد-ﷺ- قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾ [الأحزاب: ٢١].

١٢-الظن الحسن بالله- عز وجل- يرفع درجة العبد عند ربه ومولاه، عن أبي هريرة- رضي الله عنه- قال: قال النبي-ﷺ-: «يقول الله تعالى: أنا عند ظن عبدي بي وأنا معه إذا ذكرني فإن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي وإن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منهم وإن تقرب إلي شبرا تقربت إليه ذراعا وإن تقرب إلي ذراعا تقربت إليه باعا وإن أتاني يمشي

أتيته هرولة»([22])

١٣-الرجاء يدفع العبد إلى التوبة والرجوع إلى الله، والتوبة من أحب الأعمال إلى الله-عز وجل- فعن أبي هريرة قال: قال رسول الله-ﷺ-: «والذي نفسي بيده لو لم تذنبوا لذهب الله بكم ولجاء بقوم يذنبون فيستغفرون الله فيغفر لهم»([23])، وعن أبي هريرة: أن رسول الله-ﷺ- قال: «لو يعلمُ المؤمنُ ما عند الله من العقوبة ما طمع بجنته أحدٌ، ولو يعلمُ الكافرُ ما عند الله من الرحمة ما قنط من جنته أحد»([24]).

وعن عمر بن الخطاب-رضي الله عنه-: قدم على النبي-ﷺ- سبي فإذا امرأة من السبي قد تحلب ثديها تسقي إذا وجدت صبيًا في السبي أخذته فألصقته ببطنها وأرضعته فقال لنا النبي-ﷺ-: «أترون هذه طارحةً ولدها في النار» قلنا: لا وهي تقدر على أن لا تطرحه فقال: «لله أرحم بعباده من هذه بولدها»([25]).

وعن صفوان بن محرز المازني قال: بينما أنا أمشي مع ابن عمر-رضي الله عنهما- آخذٌ بيده إذ عرض رجل فقال كيف سمعت رسول الله-ﷺ- في النجوى؟ فقال: سمعت رسول الله-ﷺ- يقول: «إن الله يدني المؤمن فيضع عليه كنفه ويستره فيقول: أتعرف ذنب كذا أتعرف ذنب كذا؟ فيقول: نعم أي رب حتى إذا قرره بذنوبه ورأى في نفسه أنه هلك قال: سترتها عليك في الدنيا وأنا أغفرها لك اليوم، فيعطى كتاب حسناته، وأما الكافر والمنافق فيقول الأشهاد: هؤلاء الذين كذبوا على ربهم ألا لعنة الله على الظالمين»([26]).

تاسعا: أرجى آية في القرآن بين البرهان والإتقان:

أولا: ما ذكره الإمام الزركشي في البرهان:

كان للإمام الزركشي(ت٧٩٤ه) قصب السبق في جمع هذا الباب، حيث جمع ثلاثة عشر قولا في أيِّ آيات القرآن أرجى؟، وصدَّرها بآية الدين، وبين وجه الرجاء فيها، ثم آية النور:(ولا يأتل)، واكتفى بذكر ما رواه مسلم فيها، ولم يبين وجه الرجاء فيها، ثم آية الأنفال:(قل للذين كفروا إن ينتهوا...)، ووجهها، وهذه الثلاثة له هو.

([22])أخرجه البخاري، ٦/ ٢٦٩٤، برقم: ٦٩٧٠، صحيح مسلم، ٤/ ٢٠٦١، برقم: ٢٦٧٥.

([23])) أخرجه مسلم، ٤/ ٢١٠٦، برقم: ٢٧٤٩.

([24])أخرجه مسلم، ٤/ ٢١٠٩، برقم: ٢٧٥٥.

([25])أخرجه البخاري، ٥/ ٢٢٣٥، برقم: ٥٦٥٣.

([26])) أخرجه البخاري، ٢/ ٨٦٢، برقم: ٢٣٠٩.

ثم ذكر خمسة أقوال منسوبة إلى الشيخ محيي الدين في رءوس المسائل([٢٧])، وهي على الترتيب المذكور:آية سبأ:(وهل نجازي إلا الكفور)، ولم يوجه، ثم آية طه:(إنا قد أوحي إلينا...)، ولم يوجه، ثم آية الشورى:(وما أصابكم...)، ولم يوجه، ثم آية الإسراء:(قل كل يعمل...)، ولم يوجه، ثم آية الضحى:(ولسوف يعطيك ربك فترضى)، ولم يوجه.

ثم قال:وقد رأيت في مناقب الشافعي...و ذكر آية البلد:(يتيما ذا مقربة.أو مسكينا ذا متربة)، ولم يوجه، ثم ذكر ما رواه الحاكم في مستدركه من لقاء ابن عباس وعبد الله بن عمرو بن العاص(رضي الله عنهم أجمعين) حيث يرى عبد الله بن عمرو أن آية الزمر هي أرجى آية، ويرى ابن عباس أن قوله في البقرة:(أولم تؤمن قال بلى...) هي أرجى آية، ثم ذكر قول النحاس إنها آية محمد:(فهل يهلك إلا القوم الفاسقون)، ولم يبين وجهها، ثم ختمها بقول ابن عباس إنها آية الرعد:(وإن ربك لذو مغفرة للناس على ظلمهم)، ولم يبين وجه الرجاء فيها.

ثانيا: ما ذكره الإمام السيوطي في الإتقان:

ذكر السيوطي ما ذكره الزركشي، مع اختلاف في الترتيب، وإضافة بعض التحقيقات، ونسبة الآثار الواردة فيها، ثم زاد خمسة أقوال أخرى، لتصير ثمانية عشر قولا، على النحو الآتي:

صدرها بآية الزمر، ولم يذكر نصها، ولا وجه الرجاء فيها، لشهرتها ووضوحها، ثم آية البقرة:(أولم تؤمن قال بلى)ذاكرا الحديث الوارد في لقاء ابن عباس وعبد الله بن عُمَرَ(وليس عبد الله بن عمرو بن العاص كما ذكر الزركشي)، ثم آية الضحى:(ولسوف يعطيك ربك فترضى) وبين أنها الشفاعة، وهذا وجه الرجاء، ثم ذكر ما أخرجه الواحدي في آية النساء:(إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء)، وهذا أحد المواضع التي زادها، ولم يبين وجهه، ولا أي الموضعين في سورة النساء، والصحيح أنه يقصد هذا الجزء من الآيتين الكريمتين، ولا يقصد تمامهما، ثم ما أخرجه مسلم مما يتعلق بآية النور:(ولا يأتل...)، ولم يبين وجهها، ثم ما روي في آية التوبة:(وآخرون اعترفوا...)، وهو من المواضع التي زادها، ولم يوجهه، ثم آيتي محمد:(فهل يهلك...)والرعد:(وإن ربك لذو مغفرة...)وأشارإلى وجه الرجاء في الأخيرة بقوله:"ولم يقل:على إحسانهم"، ثم ما روي في

([٢٧]) يقصد الإمام يحيى بن شرف النووي(ت٦٧٦ه)، وكتابه:(رؤوس المسائل وتحفة طلاب الفضائل).

آية البلد:(يتيما ذا مقربة.أو مسكينا ذا متربة)، والعجيب أنه لم يبين وجه الرجاء فيها كالزركشي، وكأن وجه الرجاء فيها جلي؟!

ثم نسب الأقوال الأربعة الآتية إلى النووي(كذا بنسبته، لا بلقبه)، وهي: آية الإسراء:(قل كل يعمل على شاكلته)، ولم يوجهها، ثم آية سبأ:(وهل نجازي إلا الكفور)، ولم يبين وجه الرجاء فيها، ثم آية طه:(إنا قد أوحي إلينا...)، ولم يوجه، ثم آية الشورى:(وما أصابكم من مصيبة...)، و ذكر الحديث الوارد فيها.

ونلحظ أنه أخرج آية الضحى فلم ينسبها للنووي كما فعل الزركشي، ولكنه أفردها، فجعلها ثالثة أقواله، ثم آية الأنفال:(قل للذين كفروا إن ينتهوا يغفر لهم...)، ولم يبين وجهها، ثم ختم الأقوال المنقولة بآية الدين، وبين وجه الرجاء فيها، فما جعله الزركشي أولا جعله السيوطي آخرا، وأوضحه، ثم ألحق بهذه الأقوال ثلاثة أخرى زائدة على ما ذكره الزركشي، هي كالآتي:

آية آل عمران:(والذين إذا فعلوا فاحشة...)، وما روي في فضل الثماني الآيات التي في النساء، ثم آية:(إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا)، ولم يبين أي الموضعين يعني، أموضع فصلت أم الأحقاف، والصحيح أنه يقصد هذا الجزء من الآية الكريمة، فهو محل الرجاء.

ومن خلال عرض ما ذكره الإمامان الزركشي والسيوطي، يتبين لنا فضلُ السابق على اللاحق، في إثبات بضعة عشر قولا، في أيِّ آيات القرآن أرجى، كما يتبين جهد اللاحق في التحقيق، ونسبة الأقوال، وإيراد الآثار، وزيادة خمسة أقوال أخرى، فجزاهما الله خيرا على ما سطراه، و أثابهما الله خيرا على ما قرراه، من أقوال العلماء في آيات الرجاء!

المبحث الثاني

أرجى آية في القرآن في ضوء القراءات القرآنية

الموضع الأول:

قال الله تعالى: (وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ ۖ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن ۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي ۖ) (البقرة/٢٦٠).

ذكره الزركشي والسيوطي، وغيرهما([٢٨])

وجه كونها أرجى آية:

الوجه الأول:أن الله سبحانه لم يؤاخذ نبيه إبراهيم-عليه السلام- بطلب الطمأنينة؛ فإذا طلبها الواحد منا أو اختلج في خاطره شيء من الوسوسة الشيطانية؛ لم يكن مؤاخذا بذلك بالأولى.

ولهذا قال نبينا-ﷺ- كما ثبت عنه في "صحيح البخاري"([٢٩]) «نحن أحق بالشك من إبراهيم ". فإذا كان نبينا-صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ- أحق بطلب الطمأنينة من إبراهيم الخليل، فنحن أيضًا-أيتها الأمة- أحق بذلك منه.

وليس في هذا-والعياذ بالله- ما يقدح في دين طالب الطمأنينة أو يثلم في إيمانه؛ لأنه طلب شيئا طلبه الأنبياء عليهم السلام، فأين نحن منهم؟ وملائكة الله-سبحانه- تتنزل عليهم في الوقت بعد الوقت، ويرون من براهين الله سبحانه ما لا يمكننا الوقوف عليه، ولا الوصول إلى بعضه.

وقد ورد من حديث أبي هريرة مرفوعا:" إن أحدكم يأتيه الشيطان فيقول: من خلقك؟ فيقول: الله. فيقول: من خلق الله؟ فإذا وجد أحدكم ذلك فليقل: آمنت بالله ورسوله؛ فإن ذلك يذهب عنه"([٣٠]).

([٢٨]) ينظر:البرهان في علوم القرآن للزركشي٤٤٦/١، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم، ط: الأولى، ١٣٧٦ هـ-١٩٥٧ م، الناشر: دار إحياء الكتب العربية عيسى البابى الحلبي وشركائه، والإتقان في علوم القرآن ١٤٩/٤-١٥٣، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم، الناشر: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط: ١٣٩٤هـ/ ١٩٧٤ م

([٢٩]) قال الحافظ في "الفتح" (٦/ ٤١٢): ثم اختلفوا في معنى قوله ﷺ: "نحن أحق بالشك" فقال بعضهم: معناه نحن أشد اشتياقا إلى رؤية ذلك من إبراهيم، وقيل معناه إذا لم نشك نحن فإبراهيم أولى أن لا يشك، أي لو كان الشك متطرقا إلى الأنبياء لكنت أنا أحق به منهم. وقد علمتم أني لم أشك فاعلموا أنه لم يشك، وإنما قال ذلك تواضعا منه، أو من قبل أن يعلمه الله بأنه أفضل من إبراهيم، وهو كقوله في حديث أنس عند مسلم: "أن رجلا قال للنبي ﷺ: يا خير البرية قال ذاك إبراهيم، وقيل أن سبب هذا الحديث أن الآية لما نزلت قال بعض الناس: شك إبراهيم ولم يشك نبينا فبلغه ذلك فقال: نحن أحق بالشك من إبراهيم.

([٣٠]) متفق عليه من رواية أبي هريرة رضي الله عنه، أخرجه: البخاري في الصحيح ٦/ ٣٣٦، كتاب بدء الخلق

الوجه الثاني:فقد أشار إليه ـ رضي الله عنه ـ بنفسه، **وهو أن آية البقرة دالة على أن الإيمان كاف دون الحاجة إلى بحث، فكانت بذلك أكثر الآيات رجاء عنده**، جاء في تفسير ابن كثير: "وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا عبد الله بن صالح كاتب الليث حدثني ابن أبي سلمة عن محمد بن المنكدر، أنه قال: التقى عبد الله بن عباس، وعبد الله بن عمرو بن العاص، فقال ابن عباس لابن عمرو بن العاص: أي آية في القرآن أرجى عندك؟ فقال عبد الله بن عمرو: قول الله عز وجل: ياعبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله ـ الآية، فقال ابن عباس: لكن أنا أقول: قول الله: وإذ قال إبراهيم رب أرني كيف تحي الموتى قال أولم تؤمن قال بلى ـ فرضي من إبراهيم قوله: بلى، قال: فهذا لما يعترض في النفوس ويوسوس به الشيطان"[٣١].

قال ابن عباس: هذا لما يعرض في الصدور، ويوسوس به الشيطان، فرضي الله من إبراهيم عليه السلام بأن قال: بلى، ومن طريق معمر عن قتادة عن ابن عباس: نحوه، ومن طريق علي بن زيد عن سعيد بن المسيب عن ابن عباس نحوه، وهذه طرق يشد بعضها بعضًا، وإلى ذلك جنح عطاء، فروى ابنُ أبي حاتم وابن جرير من طريق ابن جريج قال: سألت عطاء عن هذه الآية، قال: دخل قلب إبراهيم بعضُ ما يدخل قلوب الناس، فقال ذلك[٣٢].

الوجه الثالث: وقال ابن عطية: ومحمل قول ابن عباس: إنها أرجى آية، لما فيها من الإدلال على الله، وسؤال الإحياء في الدنيا، أو لأن الإيمان يكفي فيه الإجمال ولا يحتاج إلى تنقير وبحث، قال: ومحمل قول عطاء: دخل قلب إبراهيم بعض ما يدخل قلوب الناس، أي: من طلب المعاينة، قال: وأما الحديث، فمبني على نفي الشك، والمراد بالشك فيه: الخواطر التي لا تثبت، وأما الشك المصطلح عليه-وهو التوقف بين الأمرين من غير مزية لأحد عن الآخر- فهو منفي عن الخليل قطعًا؛ لأنه يبعد وقوعه ممن رسخ الإيمان في قلبه، فكيف بمن آتاه اللهُ النبوة، قال: وأيضًا فإن السؤال لما وقع بكيف، دل على حالِ شيءٍ موجود مقرر عند السائل والمسؤول، كما تقول: كيف علم فلان؟، فكيف-في الآية- سؤالٌ عن هيئة الإحياء، لا

---

(٥٩)، باب صفة إبليس وجنوده (١١)، الحديث (٣٢٧٦). ومسلم في الصحيح ١/ ١٢٠، كتاب الإيمان (١)، باب بيان الوسوسة في الإيمان (٦٠)، الحديث (٢٠٩/ ١٣٢).

[٣١] تفسير القرآن العظيم (ابن كثير)،: لأبي الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير (المتوفى: ٧٧٤هـ)، ٥٢٩/١، تح: محمد حسين شمس الدين، دار الكتب العلمية، منشورات محمد علي بيضون- بيروت، ط: الأولى- ١٤١٩ هـ.

[٣٢]العواصم والقواصم في الذب عن سنة أبي القاسم٢١٣/١، الإمام محمد بن إبراهيم الوزير، (ت ٨٤٠ هـ)تح: شعيب الأرنؤوط، الناشر: مؤسسة الرسالة، بيروت، ط: الثالثة، ١٤١٥ هـ- ١٩٩٤م

عن نفس الإحياء، فإنه ثابت مقرر. وقال ابن الجوزي: إنما صار أحق من إبراهيم لما عانى من تكذيب قومه وردهم عليه وتعجبهم من أمر البعث، فقال: أنا أحق أن أسال ما سأل إبراهيم ما جرى لي مع قومي المنكرين لإحياء الموتى، ولمعرفتي بتفضيل الله لي، ولكن لا أسأل في ذلك)([٣٣]).

وأما قول النبي-ﷺ- نحن أحق بالشك من إبراهيم فمعناه: أنه لو كان شك لكنا نحن أحق به ونحن لا نشك، فإبراهيم عليه السلام أحرى أن لا يشك، فالحديث مبني على نفي الشك عن إبراهيم.

القراءات الواردة في الآية وتوجيهها:

سنركز على القراءات الواردة في جزء الآية- محل البحث- دون التعرض للقراءات الأخرى في تتمتها؛ حتى لا نخرج عما نحن فيه من محاولة الكشف عن أثر هذه القراءات في معنى الآية الكريمة، وما أضافته من دلالات لوجه كونها أرجى آية.

في قوله تعالى: (وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ) قرأ الجمهور(ربِّ) بياء مكسورة مشددة، وأصله: يا ربي، فحذف حرف النداء؛ للإيجازمراعاة لمقام الداعي والمدعو، حيث الرغبة الأكيدة، والشوق الشديد، لدى الخليل –عليه السلام-في تحصيل رؤية كيفية إحياء الله الموتى.

كما أن المقام مقام قرب، وهو لا يحتاج إلى حرف نداء؛ إذ النداء للبعيد، ولا يناسب مقام الخليل مع الجليل.

وسر الدعاء باسم الرب:"أن الله تعالى يسأل بربوبيته المتضمنة قدرته وإحسانه وتربيته عبده، وإصلاح أمره"([٣٤])، وإضافة اسم الرب إلى ياء المتكلم تشريف للمضاف إليه، وإعلان منه بسوابق نعمه عليه من قبل، وكأنه يقدم بين يدي طلبه ثناء عليه، وإقرارا بربوبيته، واعترافا بمزيد فضله وإنعامه عليه.

كما حذفت ياء المتكلم، واجتزئ عنها بالكسرة، إيجازا أيضا؛ طلبا للتخفيف ووصولا إلى المأمول من أقرب طريق، وبأقصى سرعة، من دون مد، أو انفصال.

وفي حذف ياء المتكلم –هنا- إشارة إلى غاية القرب من الرب(جل وعلا)، لا تكاد توجد

---

(٣٣)تفسير ابن عطية (المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز)٣٥٢/١، المؤلف: أبو محمد عبد الحق بن عطية الأندلسي المحاربي (المتوفى: ٥٤٢هـ)، تح: عبد السلام عبد الشافي محمد، الناشر: دار الكتب العلمية- بيروت الطبعة: الأولى- ١٤٢٢ هـ.

(٣٤) بدائع الفوائد لابن القيم. (المتوفى: ٧٥١هـ)، ١٩٣/٢، ١٩٤ الناشر: دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان

في إثباتها، إذا قلت: (ربي أرني)، بمد الياء قبل الهمزة مدا جائزا منفصلا.

وقرأ ابن محيصن:(ربُّ) بضم الباء([٣٥])، على أنه مدعو(منادى) مبني على الضم في محل نصب؛ لأنه علم مفرد([٣٦])، وفي دعائه هكذا- من غير إضافة- معنى لطيف، وهو فناء الداعي، فلم يَرَ نفسَه شيئًا، وكأن العبد يقدم (طلب إضافة)؛ حتى يحيا أولا بشرف إضافته إليه، و الخضوع والانكسار بين يديه، وفيه إطلاق الربوبية له سبحانه وتعالى، وشمول ربوبيته جميع خلقه، وفيه إظهار لثقته بمحبة الله، تناسب سؤاله.

وقرئ في السبعة (أرني) بسكون الراء، والوجه الثاني لأبي عمرو هو اختلاس الكسرة([٣٧]).

وسكون الراء في نحو(أرني) مما سمع عن العرب([٣٨])، فمن ذلك قول الشاعر:

أرْنا إداوةَ عبدِ الله نملؤُها   من ماءِ زمزمَ إن القومَ قد ظَمِئُوا([٣٩])

وقد مال بعض العرب إلى اختلاسها طلبا للتخفيف([٤٠])، وكونهما لغتين من لغات العرب لا يمنع من البحث عن دلالة ذينك الأمرين(السكون والاختلاس)؛ إذ التخفيف الناتج عنهما عضلي، ولاشك أن تتابع الكسرتين ثقيل، و قد أقر بذلك اللغويون.

ولكننا نلحظ –هنا- في سكون الراء، أو اختلاس كسرتها عدة ملحوظات:

أولا- وقوعهما في فعل الطلب.

ثانيا- ما تحلى به الخليل إبراهيم-عليه السلام-من خلال حميدة.

([٣٥]) وهي قراءة شاذة. ينظر: إتحاف فضلاء البشر في القراءات الأربعة عشر، المؤلف: أحمد بن محمد بن أحمد بن عبد الغني الدمياطيّ، شهاب الدين الشهير بالبناء (المتوفى: ١١١٧هـ)، ٢٠٩/١، المحقق: أنس مهرة، الناشر: دار الكتب العلمية- لبنان، ط: الثالثة، ٢٠٠٦م- ١٤٢٧هـ

([٣٦]) وقد شاع بين المعربين وصفه بالنكرة المقصودة، وأراه بعيدا لا يليق، وإن كان الإعراب واحدا، وجعله علما مفردا لأن الرب اسم من أسماء الله تعالى، ورد في القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة، ففي صحيح مسلم من حديث ابن عباس- رضي الله عنهما- أن رسول الله ﷺ قال: «ألا وإني نُهيتُ أن أقرأَ القرآنَ راكعًا أو ساجدًا، فأما الركوعُ فعظموا فيه الربَّ»((صحيح مسلم: [٤٧٩])، كما أن دعاءه بهذه الصيغة الواردة في القراءة دليل على ما ذكرت.

([٣٧]) قرأ بسكون الراء: أبو عمرو بخلاف عنه، وابن كثير ويعقوب وابن محيصن واليزيدي والسوسي. والوجه الثاني لأبي عمرو هو اختلاس الكسرة ينظر:السبعة١٧١، والكشف عن وجوه القراءات لمكي١٤١/١، النشر في القراءات العشر، لابن الجزري٢٢٢/٢.

([٣٨]) ينظر:البحر المحيط٣٩١/١.

([٣٩]) من بحر البسيط، وهو بلا نسبة في البحر المحيط.

([٤٠]) ينظر:معاني القراءات للأزهري (المتوفى: ٣٧٠هـ)١٧٩/١.، الناشر: مركز البحوث في كلية الآداب- جامعة الملك سعود، المملكة العربية السعودية، ط: الأولى، ١٤١٢ هـ- ١٩٩١ م.

ثالثا- توجيه الخطاب لله تعالى.

فأما كون التخفيف بالسكون أو اختلاس الكسرة واقعا في فعل دال على الطلب فهذا يدل على عظيم الأدب، حيث إن سكون الصوت أخفض من حركته، فالحركة مجهورة، وذلك يقتضي خفض الصوت، مما يتناسب وحال الطالب أو السائل، كما أن اختلاسها يعكس حال السائل من عظيم شوقه إلى إجابة طلبه.

وأما ما تحلى به الخليل إبراهيم –عليه السلام- من صفات حميدة، فقد ذكر الله عز وجل منها قوله:(إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ)(التوبة:/١١٤)، وقوله:(إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُّنِيبٌ)(هود/٧٥).

أي"إن إبراهيم لبطيء الغضب، متذلل لربه خاشع له، منقاد لأمره، (منيب)، رَجَّاع إلى طاعته"([٤١])، وقد بدت تلك الصفات أو بعضها في الصوت؛ فظهر إجلاله لله تعالى وخشيته ومحبته في تسكين بعض الحروف، كمن يريد مسألة من أحد العظماء-ولله المثل الأعلى- فيتزلف إليه، ويقَطِّع الكلمة تقطيعًا دالا على شدة حاجته، وما يعتلج في صدره من حياء الإجلال، و إلحاح السؤال.

وأما كون الخطاب موجها إلى الله تعالى فهذا أعظم الدوافع لما يعتري السائل من وجل مشوب بالحب، وما يترتب على تلك الحال الممزوجة من ظواهر صوتية، يشير إلي بعضها صوت الراء، فهو متوسط بين الشدة والرخاوة، كما يشير السكون إلى حال صاحبه.

وأرى أن اعتدادها أرجى آية خاص بالخواص، ممن يترقى في مراتب الإيمان والإحسان، و يريد التحقق من مقاماتهما، والتخلق بمقام "أن تعبد الله كأنك تراه"، جعلنا الله وإياكم منهم!

الموضع الثاني:

آية الدين، وهي أطول آية في القرآن الكريم، قوله تعالى:(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوهُ ۚ) إلى قوله تعالى:(وَاتَّقُوا اللَّهَ ۖ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ ۗ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ)(البقرة/٢٨٢).

ذكره الزركشي والسيوطي وغيرهما([٤٢])

وجه كونها أرجى آية:

([٤١]) تفسير الطبري المسمى: جامع البيان في تأويل القرآن، للإمام محمد بن جرير، أبي جعفر الطبري(ت ٣١٠هـ)، تح/أحمد محمد شاكر، الناشر: مؤسسة الرسالة، ط/ الأولى، ١٤٢٠ هـ- ٢٠٠٠ م

([٤٢])ينظر:البرهان للزركشي٤٤٦/١، والإتقان١٤٩/٤-١٥٣.

أن هذه الآية تبين كيف أن الله سبحانه وتعالى يرعى ويحفظ ويشرع من التشريعات ما يضمن حق المسلم ويراعي شؤونه حتى في أشياء دقيقة، فأنزل أطول آية في القرآن لحفظ مال قليل أو كثير، وهو- بالنسبة إلى الآخرة-حقير، وإذا كان كذلك فلا شك أن عناية الله سبحانه وتعالى بعبده المؤمن في عرصات القيامة وفي أهوالها يرجى أن تكون أعظم، وأن تكون رحمته أوسع، فهذا هو وجهها.

ووجهه السيوطي: بأن الله أرشد عباده إلى مصالحهم الدنيوية حتى انتهت العناية بمصالحهم إلى أمرهم بكتابة الدين الكثير والحقير فمقتضى ذلك ترجي عفوه عنهم لظهورالعناية العظيمة بهم(٤٣).

(وَقَالَ بَعْضُ أَهْلِ الْعِلْمِ: أَرْجَى آيَةٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ- عَزَّ وَجَلَّ- آيَةُ الدَّيْنِ: وَهِيَ أَطْوَلُ آيَةٍ فِي الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ، وَقَدْ أَوْضَحَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى فِيهَا الطُّرُقَ الْكَفِيلَةَ بِصِيَانَةِ الدَّيْنِ مِنَ الضَّيَاعِ، وَلَوْ كَانَ الدَّيْنُ حَقِيرًا كَمَا يَدُلُّ عَلَيْهِ قَوْلُهُ تَعَالَى فِيهَا: وَلَا تَسْأَمُوا أَنْ تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَى أَجَلِهِ الْآيَةَ [٢ \ ٢٨٢]، قَالُوا: هَذَا مِنَ الْمُحَافَظَةِ فِي آيَةِ الدَّيْنِ عَلَى صِيَانَةِ مَالِ الْمُسْلِمِ، وَعَدَمِ ضَيَاعِهِ، وَلَوْ قَلِيلًا يَدُلُّ عَلَى الْعِنَايَةِ التَّامَّةِ بِمَصَالِحِ الْمُسْلِمِ، وَذَلِكَ يَدُلُّ عَلَى أَنَّ اللَّطِيفَ الْخَبِيرَ لَا يُضَيِّعُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِنْدَ اشْتِدَادِ الْهَوْلِ، وَشِدَّةِ حَاجَتِهِ إِلَى رَبِّهِ)(٤٤).

فمن نظر من أهل العلم ما بيَّنه الله في آية المداينة من الطرق الكفيلة بصيانة الدَّين من الضياع ولو كان الدين حقيرًا، كما هو ظاهر الآية قالوا: "هذا من المحافظة في آية الدين على مال المسلم مع العناية التامة بمصالح العبد المسلم، فكيف إذًا بعناية اللطيف الخبير لعبده المسلم يوم القيامة وهو في شدة الحاجة إلى ربه؟"لا ريب أن ذلك أعظم وأولى.

<u>القراءات الواردة في آية الدين</u>:

قراءة الجمهور (فلْيكتب ولْيملل) بسكون اللام، و قرئ (فلِيكتب) بكسر لام الأمر(٤٥)، وقرئ أيضا (ولِيملل) بكسر لام الأمر(٤٦)، وكلتاهما من لغات العرب.

---

(٤٣) ينظر:المرجع السابق ذاته.

(٤٤) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، محمد الأمين بن محمد المختار بن عبد القادر الجكني الشنقيطي (المتوفى: ١٣٩٣هـ)، ٤٨٩/٥، الناشر:دار الفكر، بيروت- لبنان:١٤١٥ هـ- ١٩٩٥م.

(٤٥) هي قراءة شاذة، نسبت إلى السلمي والحسن والزهري وأبي حيوة وعيسى الثقفي، كما في البحر المحيط٤١/٢.

(٤٦) هي قراءة شاذة، نسبت إلى الحسن وعمرو بن عبيد وأبو عبد الرحمن السلمي ويحيى بن وثاب وغيرهم، كما في مختصر في شواذ القرآن، ابن خالويه، من كتاب البديع، ١٨، نشره برجستراسر، طبع المطبعة الرحمانية، بمصر١٩٣٤م، والبحر المحيط٤١/٢.

وإذا كان قبل لام الأمر واو العطف أو فاؤه جاز كسر اللام على الأصل وإسكانها تخفيفا؛ لأن الفاء والواو يتصلان بالكلمة، كأنهما منها ولا يمكن الوقوف على واحد منهما.

والإسكان فيها أكثر في الكلام، فإذا كان قبلها(ثم)، فإن الوجه كسر اللام لأن(ثم) حرف يقوم بنفسه، ويمكن الوقوف عليه، والابتداء بما بعده، والواو والفاء لا يمكن ذلك فيهما، والوجه كسر اللام بل لا يجيز البصريون غيره، وقد أجاز بعض النحويين إسكانها مع(ثم)أيضا حملا على الواو والفاء وعلى ذلك قرأ بعض القراء ثم ليقضوا تفثهم بالإسكان والكسر أجود لما ذكرت لك من العلة واجمع النحويون من البصريين والكوفيين على أن الفعل إذا دخلت عليه هذه اللام كان مجزوما بها لغائب كان أو لحاضر كقولك: ليذهب زيد ولتركب يا عمرو(٤٧).

و إسكان اللام أخف من كسرها، ويبقى معنى الأمر ثابتا فيها، والراجح- كما ذكر أبو بكر بن العربي، وغيره- أن "الأمر بالكتابة والإشهاد والرهن المذكور جميعه في الآية ندب وإرشاد لنا إلى مالنا فيه الحفظ والصلاح والاحتياط للدين والدنيا وأن شيئا منه غير واجب"(٤٨).

وقرئ شاذا:(ولْيملّ) بالإدغام، وهي لغة تميم، والفك لغة الحجاز(٤٩).

وقراءة الفك هنا أنسب للمعنى؛ حيث إن المملي لما كان قادرا على الإملاء ناسبه الفك في الفعل، كما ناسب الإدغامُ من عجز عن الإملاء، وقد لحظ الفرق شيخنا الآلوسي فقال:

" وتغيير الأسلوب اعتناء بشأن النفي، ولا يخفى حسن الإدغام هنا والفك فيما تقدم، ومثله الفك في قوله تعالى: فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُ أي متولي أمره"(٥٠).

وقرأ أبوجعفر (شيًّا)بياء مشددة، وذلك بإبدال الهمزة ياء، فيجتمع مثلان، أولهما ساكن، فتدغم الياء في الياء، وكذا حمزة وقفا في أحد وجهيه، والوجه الآخر لحمزة في الوقف(شيا)بتخفيف الياء، حيث نقل حركة الهمزة إلى الياء، وحذف الهمزة، فتبقى الياء

---

(٤٧) ينظر:شرح المفصل لابن يعيش، وشرح شافية ابن الحاجب، للرضي، تح/محمد نور الحسن، محمد الزفزاف، محمد محيى الدين عبد الحميد-الناشر: دار الكتب العلمية بيروت- لبنان: ١٣٩٥ هـ- ١٩٧٥ م، ومغني اللبيب لابن هشام١/١٨٥.باختصار.

(٤٨) ينظر:أحكام القرآن لابن العربي، وتفسير القرطبي٣/٣٨٣.

(٤٩) ينظر:الدر المصون ١/٦٧٣.

(٥٠).روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، شهاب الدين محمود بن عبد الله الحسيني الألوسي، (ت: ١٢٧٠هـ)، ٢/٥٦المحقق: علي عبد الباري عطية، دار الكتب العلمية، بيروت، ط/١، ١٤١٥ هـ

خفيفة.

ومعروف أن بعض العرب يحققون الهمز، وبعضهم يحذفها، أو يخففها، وتحقيقها يزيد في بناء الكلمة، وحذفها أو إبدالها يخفف من بنائها.

ففي قوله تعالى:(ولا يبخس منه شيئا)أي:" وليتق الله ربه المملي الذي عليه الحق، فليحذر عقابه في بخس الذي له الحق من حقه شيئا، أن ينقصه منه ظلما، أو يذهب به منه تعديا، فيؤخذ به حيث لا يقدر على قضائه إلا من حسناته، أو أن يتحمل من سيئاته"(٥١)

وَالْبَخْسُ فَسَرَّهُ أَهْلُ اللُّغَةِ بِالنَّقْصِ وَيَظْهَرُ أَنَّهُ أَخَصُّ مِنَ النَّقْصِ، فَهُوَ نَقْصٌ بِإِخْفَاءٍ.

وَأَقْرَبُ الْأَلْفَاظِ إِلَى مَعْنَاهُ الْغَبْنُ، قَالَ ابْنُ الْعَرَبِيِّ فِي الْأَحْكَامِ: «الْبَخْسُ فِي لِسَانِ الْعَرَبِ هُوَ النَّقْصُ بِالتَّعْيِيبِ وَالتَّزْهِيدِ، أَوِ الْمُخَادَعَةُ عَنِ الْقِيمَةِ، أَوِ الِاحْتِيَالُ فِي التَّزَيُّدِ فِي الْكَيْلِ أَوِ النُّقْصَانُ مِنْهُ» أَيْ عَنْ غَفلَة من صَاحِبِ الْحَقِّ، وَهَذَا هُوَ الْمُنَاسِبُ فِي مَعْنَى الْآيَةِ لِأَنَّ الْمُرَادَ النَّهْيُ عَنِ النَّقْصِ مِنَ الْحَقِّ عَنْ غَفْلَةٍ مِنْ صَاحِبِهِ، وَلِذَلِكَ نُهِيَ الشَّاهِدُ أَوِ الْمَدِينُ أَوِ الدَّائِنُ(٥٢)

وكأن قراءة(شيا) بالتخفيف تشير إلى النهي عن بخس شيء من حق الدائن، وإن كان قليلا.

وقوله:(واستشهدوا شهيدين) وَالشَّهَادَةُ حَقِيقَتُهَا الْحُضُورُ وَالْمُشَاهَدَةُ، وَالْمُرَادُ بِهَا هُنَا حُضُورٌ خَاصٌّ وَهُوَ حُضُورٌ لِأَجْلِ الِاطِّلَاعِ عَلَى التَّدَايُنِ(٥٣)، ، قرئ:شاهدين(٥٤)، تثنية شاهد، وهو تفسير للقراء المتواترة.

وقراءة (شهيدين) مثنى شهيد، على زنة "فعيل"، وهو بمعنى فاعل، وفيه مبالغة في الوصف، أي: شهيدين ذوَيْ أهلية للشهادة، يتحملانها، ويعيان أمرها، ومآلاتها، وما يلزمها.

وفي قوله:(أن تضل) بفتح الهمزة الناصبة للمضارع(٥٥)، أي: "أن لا تهتدى إحداهما للشهادة بأن تنساها، من ضل الطريق إذا لم يهتد له، وانتصابه على أنه مفعول له أى إرادة أن تضل"(٥٦)

---

(٥١) تفسير الطبري٦/٤٣.

(٥٢) التحرير والتنوير٣/١٠٤.

(٥٣) المرجع السابق٣/١٠٦.

(٥٤) ينظر:إعراب القراءات الشواذ للعكبري١/٢٨٨.

(٥٥) هذه قراءة متواترة، نسبت إلى نافع وابن عامر وابن كثير وأبي عمرو وعاصم والكسائي وأبي جعفر ويعقوب وخلف، ورجحها الطبري، ينظر:السبعة ١٩٤، والنشر٢/٢٣٦.

(٥٦) تفسير الزمخشري= الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، لأبي القاسم محمود بن عمرو، الزمخشري جار الله (ت ٥٣٨هـ)، ١/٣٢٦.الناشر: دار الكتاب العربي- بيروت، ط/ الثالثة- ١٤٠٧ هـ

"يُقْرَأُ بِفَتْحِ الْهَمْزَةِ عَلَى أَنَّهَا الْمَصْدَرِيَّةُ النَّاصِبَةُ لِلْفِعْلِ، وَهُوَ مَفْعُولٌ لَهُ، وَتَقْدِيرُهُ: لِأَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا. (فَتُذَكِّرَ): بِالنَّصْبِ مَعْطُوفٌ عَلَيْهِ. فَإِنْ قُلْتَ لَيْسَ الْغَرَضُ مِنَ اسْتِشْهَادِ الْمَرْأَتَيْنِ مَعَ الرَّجُلِ أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا، فَكَيْفَ يُقَدَّرُ بِاللَّامِ؟.

فَالْجَوَابُ مَا قَالَهُ سِيبَوَيْهِ: إِنَّ هَذَا كَلَامٌ مَحْمُولٌ عَلَى الْمَعْنَى، وَعَادَةُ الْعَرَبِ أَنْ تُقَدِّمَ مَا فِيهِ السَّبَبُ فَيُجْعَلُ فِي مَوْضِعِ الْمُسَبِّبِ ; لِأَنَّهُ يَصِيرُ إِلَيْهِ، وَمِثْلُهُ قَوْلُكَ أَعْدَدْتُ هَذِهِ الْخَشَبَةَ أَنْ تَمِيلَ الْحَائِطُ فَأَدْعَمُهُ بِهَا، وَمَعْلُومٌ أَنَّكَ لَمْ تَقْصِدْ بِإِعْدَادِ الْخَشَبَةِ مَيْلَ الْحَائِطِ، وَإِنَّمَا الْمَعْنَى لِأَدْعَمَ بِهَا الْحَائِطَ إِذَا مَالَ، فَكَذَلِكَ الْآيَةُ ; لِأَنْ تُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَى إِذَا ضَلَّتْ أَوْ لِضَلَالِهَا.

وَلَا يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ التَّقْدِيرُ: مَخَافَةَ أَنْ تَضِلَّ ; لِأَنَّهُ عَطَفَ عَلَيْهِ فَتُذَكِّرَ، فَيَصِيرُ الْمَعْنَى مَخَافَةَ أَنْ تُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَى إِذَا ضَلَّتْ، وَهَذَا عَكْسُ الْمُرَادِ"(٥٧).

"والنكتة في إيثار أَنْ تَضِلَّ إلخ على- أن تذكر إن ضلت- الإيماء إلى شدة الاهتمام بشأن الإذكار بحيث صار ما هو مكروه كأنه مطلوب لأجله من حيث كونه مفضيا إليه"(٥٨).

وقرئ (إن تَضِلَّ) بكسر الهمزة(٥٩)، و"إن" حرف شرط، فالفعل (تضل) مجزوم بها، وحرك بالفتح تخفيفا، لالتقاء الساكنين (اللام المشددة)، ومن قرأ بكسر الهمزة في (إن) قرأ برفع الفعل في قوله (فتذكرُ) وهو جواب الشرط، ورفع الفعل لدخول الفاء عليه.

وفائدة الشرط هنا بيان حكمة الله تعالى في اشتراط إقامة المرأتين مقام الرجل في الشهادة، وهو الاحتراس من نسيان إحداهما، فجعل معها أخرى لتذكرها إن نسيت.

وقرئ:(تُضَلَّ)(٦٠) مبنيا للمفعول، بمعنى تُنَسَّى، وفيه إعذار للمرأة، وإعلام بأن النسيان- في أمر الشهادة- جِبِلِيّ، لا طاقة لها عليه.

وقرئ:(تُضِلَّ) بضم التاء، وكسر الضاد، بمعنى أن تُضل الشهادة إحداهما(٦١).

هكذا في كلام المعربين، من غير ضبط ولا توجيه، و يحتاج فضل تأمل، وإليك ما فتح الله لي به من أوجه في توجيهها:

أولا-يمكن أن يكون (تُضِل) من قولهم:أضللتُ الشيء، إذا غيبتَه، فيكون فيه إيجازًا

---

(٥٧) التبيان في إعراب القرآن، للعكبري(ت٦١٦ه)، تح/علي محمد البجاوي، ٢٢٩/١، الناشر:عيسى البابي الحلبي، ط.د.ت.

(٥٨) روح المعاني٥٧/٢.

(٥٩) نسبت إلى حمزة وأبان بن تغلب والأعمش، كما في السبعة١٩٤، والنشر٢٣٦/٢.

(٦٠) وهي من الشواذ، قرأ بها الجحدري وعيسى بن عمر، ينظر:الكشاف:٣٠٥/١، والمحرر الوجيز ٥١٢/٢.

(٦١) ينظر:مختصر ابن خالويه١٨، والبحر المحيط/٣٤٩.

بالحذف، أي تُضِل إحداهما الشهادةَ، و تكون المرأة قد غيبت الشهادة عمدا أو خطأ.

كما يجوز نسبة الإضلال إلى الشهادة، على المجاز، كما في قوله تعالى:(رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ) (إبراهيم/٣٦)، أي ضلوا بسببها، والأول أولى؛ لأن حذف المفعول أخف وأيسر من حذف الفاعل.

ثانيا- من قولهم:أضللت الشيء إذا سقط من يدك، قال أبوعمرو بن العلاء:إذا لم يعرف المكان قلت:ضللته، وإذا سقط من يدك شيء قلت:أضللته.

قال:يعني أن المكان لا يضل، وإنما أنت تضل عنه، وإذا سقطت الدراهم عنك فقد ضلت عنك، تقول للشيء الزائل عن موضعه:قد أضللته، وللشيء الثابت في موضعه إلا أنك لم تهتد إليه ضللته، ومن هذا الوجه يمكن أن يقال في توجيه قراءة (تُضِل): أي ضاعت الشهادة منها، وانفلتت، فلم تجد لها ذكرا في ذهنها.

ثالثا- من قولهم:أضللتُ الشيءَ، إذا وجدتَه ضالًا، كما تقول: أحمدتُه، وأبخلتُه، إذا وجدتَه محمودًا وبخيلًا.

ويُسَوِّغُ هذا الوجهُ أن تكون التاءُ في (تُضِل) للخطاب، لا للتأنيث، أي:أن تجد إحداهما ضالة للشهادة أي ناسية لها وغير متثبة منها.

فإن قلتَ: فإن التاء في (فتذكر) للتأنيث، فكيف يناسبه الخطاب؟

قلتُ:لا تعارضَ بينهما، فالخطاب في الأول لبيان الحال التي وجد المخاطبُ المرأةَ عليها، وهي نسيان الشهادة، ونسبة التذكير- في الفعل الآخر- للمرأة الأخرى إعلام بحكمة الباري- سبحانه- في اقتران شهادة المرأتين معا.

وقرئ في السبعة (فتُذْكِرَ) بسكون الذال، وتخفيف الكاف، ونصب الراء(٦٢)، من أذكر متعديا بالهمزة، والقراءة الأخرى (فتذكر)(٦٣) بتشديد الكاف، من (ذكَّر) متعديا بالتضعيف، وهما لغتان من لغات العرب، ويبدو-من ظاهر كلام اللغويين- أنهما بمعنى واحد.

ولكنني أميل إلى قاعدة "الزيادة في المبنى تدل على الزيادة في المعنى"، والزيادة هنا في تضعيف العين؛ إذ أن ذلك أقوى في الصوت من زيادة الهمزة، كما أن تعدي الفعل بالهمزة – غالبا- يدل على وقوع الفعل دفعة واحدة، وتعديه بالتضعيف –غالبا- يدل على وقوعه

---

(٦٢) نسبت إلى ابن كثير وأبو عمرو ويعقوب والكسائي برواية قتيبة وابن محيصن واليزيدي والحسن، ينظر: السبعة ١٩٤، والنشر ٣٤٦/٢.

(٦٣) قراءة الجمهور (بتشديد الكاف، ونصب الراء)، وحمزة برفع الراء، ومعه الأعمش وإبان بن تغلب.

بالتدريج كما في أنزل ونزل، وأعلم وعلّم، فإنك تقول:أعلمت زيدا المسألة، أي: دفعة واحدة، وعلَّمته السباحة، أي: شيئا فشيئا.

يقول الآلوسي:" وذكر بعض المحققين لهذا المقام أن التدريج ليس هو التكثير بل الفعل شيئا فشيئا كما في تسلسل، والألفاظ لابد فيها من ذلك فصيغة (نَزَّلَ) تدل عليه والإنزال مطلق لكنه إذا قامت القرينة يراد بالتدريج التنجيم وبالإنزال الذي قد قوبل به خلافه أو المطلق بحسب ما يقتضيه المقام"(٦٤).

والقراءتان متعاضدتان؛ إذ أن قراءة التخفيف(فتُذْكِرَ) تناسب حال المرأة التي ضلت (نسيت) نسيانا خفيفا، تحتاج إلى أختها كي تعطيها الخيط فتتذكر الشهادة.

وقراءة التضعيف (فتُذَكِّرَ) تناسب المرأة التي أضلت (ضاع من ذاكرتها) الشهادة، فتحتاج إلى كثرة التذكير، أو قوته؛ كي تتذكر الشهادة.

ويؤكد هذا المعنى الأخير قراءةُ (فتذاكر)، من المذاكرة.(٦٥)

وقرئ (واشهَدوا) بهمزة الوصل، وفتح الشين(٦٦)، أمر من (شهد) بمعنى حضر وعاين.

وإذا كانت القراءة المتواترة تدل على الإشهاد عند التبايع، فإن هذه القراءة تدل على حضور البيِّعَينِ، أو من ينوب عنهما من الوكلاء، ومعاينتهما البيع.

وهذا معنى لطيف، يدركه أهل عصرنا، ولا يكاد يدركه السابقون، ومخالفة هذا الأمر جد خطيرة؛ إذ أن البيع والشراء عن طريق الوسائل الحديثة من الخطر بمكان، فكثيرة تلك المواقع التي تعلن عن سلع، أو عقارات، أو غير ذلك- عن طريق الشبكة العنكبوتية، ووسائل التواصل الاجتماعي، وقد يقع الإنسان فريسة للكذب والاحتيال، بسبب شرائه شيئا لم يحضره أو يعاينه، وإنما شاهد صورته من بعيد، وسمع صوت البائع أو شاهده عن طريق الهاتف الجوال، فسبحان من أنزل القرآن على سبعة أحرف!(٦٧)

وقرئ (كُتَّاب) جمع كاتب(٦٨)، وهي تفسر القراءة المتواترة (كاتب)؛ لأن المراد الجنس، وليس المفرد.

وبعد، فهذه مجموعة من القراءات المتواترة والشاذة، وردت في أطول آية من كتاب الله

(٦٤) روح المعاني ٧٦/٣.

(٦٥) قراءة شاذة، نسبت إلى زيد بن أسلم، كما في مختصر ابن خالويه ١٨، والكشاف ٣٠٤/١.

(٦٦) هي قراءة شاذة، نسبت إلى ابن عمير، ينظر:إعراب القراءات الشواذ للعكبري، ٢٩١/١.

(٦٧) من اجتهاد الباحث، وأرجو أن يكون صوابا.

(٦٨) وهي قراءة شاذة، ينظر: إتحاف فضلاء البشر ٢١٣/١.

تعالى، وهي آية الدين، وقد رأينا من توجيه تلك القراءات ما يعزز معنى الرجاء فيها، من حيث المعاني الآتية:

أولا- سعة رحمة الله تعالى، وعلمه القديم بأحول خلقه، وتفاوت قدراتهم في معارفهم، وخبراتهم، حيث أنزل سبحانه الحلول المناسبة لكل حالة، ويظهر ذلك جليا في القراءات (وليملل)، (وليمل)،

بالفك والإدغام، وكذلك في حال نسيان المرأة الشهادةَ، والتماس العذر لها، وذلك واضح في القراءات الواردة في (تضل)، وكذا في تفاوت درجات التذكر تبعا لدرجات النسيان، في القراءات (فتذكر) بالتخفيف، و(تذكر)بالتثقيل، و(تذاكر) بالمفاعلة.

ثانيا- رحمة الله الواسعة بالدائن والمدين معا، وهذا المعنى ظاهر في الآية كلها، حيث التخفيف في قراءة (شيا)، والتعبير بالبخس، وهو النقص بخفاء، فقد نهى الله الكاتب والمدين عن نقص شيء من حق الدائن، ولو كان شيئا يسيرا، وإياك أن تخفي شيئا من الحق؛ لأن الله يراك، وكما قال أبو العتاهية:(٦٩)

إذا ما خلوْتَ، الدّهرَ، يوْمًا، فلا تَقُلْ خَلَــوْتَ ولكِنْ قُلْ عَلَيَّ رَقِيــــبُ

ولاَ تحْــــسَبَنَّ اللهَ يغفِلُ ســـاعة وَلا أنَ مَا يخـــفَى عَلَيْهِ يغيـــب

ثالثا- لطف الله وعنايته بمصالح خلقه، وذلك في أمور تتعلق بالمعاش في الدنيا من بيع وشراء، وما يجري مجراهما، ووصيته بحضور البيع ومعاينته، وعدم الاكتفاء بالوسائل غير المباشرة، في قراءة (واشهدوا) كما سبق.

الموضع الثالث:

قوله:(وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ. أُولَٰئِكَ جَزَاؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ۚ وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ) (آل عمران/١٣٥، ٣٦١)

وقد ألحقها الإمام السيوطي(٧٠) بجملة الأقوال التي ذكرها، حيث قال:

"قُلْتُ: وَيَلْحَقُ بِهَذَا مَا أَخْرَجَهُ ابْنُ الْمُنْذِرِ عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ أَنَّهُ ذُكِرَ عِنْدَهُ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَمَا فَضَّلَهُمُ اللَّهُ بِهِ فَقَالَ كَانَ بَنُو إِسْرَائِيلَ إِذَا أَذْنَبَ أَحَدُهُمْ ذَنْبًا أَصْبَحَ وَقَدْ كُتِبَتْ كَفَّارَتُهُ عَلَى أُسْكُفَّةِ بَابِهِ، وَجُعِلَتْ كَفَّارَةُ ذُنُوبِكُمْ قَوْلًا تَقُولُونَهُ تَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ فَيَغْفِرُ لَكُمْ وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَقَدْ أَعْطَانَا

(٦٩) ديوان أبي العتاهية، ص ٣٤، دار بيروت، سنة النشر: ١٤٠٦- ١٩٨٦

(٧٠) الإتقان للسيوطي٤/١٥٣.

اللَّهُ آيَةً لَهِيَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا: {وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ} الْآيَةَ(٧١).

ووجه كونها أرجى آية:أنها جاءت في معرض ندبهم إلى المبادرة إلى فعل الخيرات والمسارعة إلى نيل القربات، في قوله:(وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ)(آل عمران/١٣٣)، و اشتملت على فتح باب التوبة بلفظ الاستغفار، ولا يغفر الذنوب إلا الله، فأغرتهم بطلب المغفرة أي إغراء، فكيف يصر على الذنب من علم أن من تاب تاب الله عليه؟!

ثم بين جزاءهم، وهو المغفرة والجنات "وهذا الجزاء وهو المغفرة وعد من الله تعالى، تفضّلا منه: بأن جعل الإقلاع عن المعاصي سببًا في غفران ما سلف منها. وأمَّا الجنّات فإنَّما خلصت لهم لأجل المغفرة، ولو أخذوا بسالف ذنوبهم لما استحقّوا الجنَّات فالكلّ فضل منه تعالى(٧٢).

ولم يرد من القراءات الفرشية شيء في هاتين الآيتين.

وكل ما ورد فهو من الأصول، فقد قرأ الأزرق وورش بتغليظ اللام في (ظلموا)(٧٣)، لمناسبة الظاء المفتوحة(٧٤) قبلها، و هي لغة لبعض العرب، وهي –وإن كانت صوتية- فإنها تشير إلى بشاعة الظلم وثقله.

وقرأ الأزرق وورش بترقيق الراء في (يغفر) و(لم يصروا)؛ لمناسبة الكسرة قبلها(٧٥)، وخفة اللفظ تشير إلى هوان ذلك ويسره، فالمغفرة لا يملكها أحد سوى الله، و عدم الإصرار يسهل إذا علم العبد عظم رحمة الله، كما قال أبو نواس(٧٦):

يارب إن عظمت ذنوبي كثـــــرةً **** فلقد علمت بأن عفوك أعظمُ
إن كان لا يرجوك إلا محســـــنٌ **** فبمن يلوذ ويستجير المجرمُ
أدعوكَ ربِّي كما أمرتَ تضرُّعاً *** فإذا رددتَ يدي فمنْ ذا يرحـــــمُ

---

(٧١) تفسير ابن المنذر، (١/ ٣٨٦).

(٧٢) التحرير والتنوير ٨٨/٤.

(٧٣) ينظر:النشر ١١٢/٢، والإتحاف ٢٢٨/١.

(٧٤) ينظر:الإضاءة في بيان أصول القراءة للشيخ محمد علي الضباع، ص ٣٢، مراجعة جمال شرف، دار الصحابة بطنطا، ط/الثانية، ١٤٢٢هـ/٢٠٠٢م.

(٧٥) ينظر:النشر ٩٩/٢-١٠٠.

(٧٦)ديوان أبي نواس، الحسن بن هانئ، تح/ إيفالد فاغنر ١٧٣/٢، دارالنشر فرانز شتاينر- بفيسبادن، ١٣٩٢هـ/١٩٧٢م.

ما لي إليكَ وسيلةٌ إلا الرَّجـــــا *** وجميل ظنِّي ثمَّ أنيَّ مُســلمٌ

وقول الشافعي-رضي الله عنه(٧٧):

إليك إله الخلـــق أرفع رغبتـــــي وإن كنتُ- ياذا المنِّ والجود- مجرمًا

ولَّما قسا قلبي، وضـــاقت مذاهبي جَعَلْتُ الرَّجَا مِنِّــي لِعَفْــوِكَ سُلَّمَــا

تعاظمــــني ذنبــــي فلَّمــا قرنتــهُ بعفـــوكَ ربي كانَ عفـــوكَ أعظمــا

فَمَـا زِلْتَ ذَا عَفْوٍ عَنِ الذَّنْبِ لَمْ تَزَل تَجُــودُ وَتَعْفُـــو مِنَّـــــةً وَتَكَرُّمــــَا

الموضع الرابع:

ثماني آيات من سورة النساء:

١- قوله تعالى:(يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٢٦).

٢- وقوله:(وَاللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَن تَمِيلُوا مَيْلًا عَظِيمًا) (٢٧)

٣- وقوله:(يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ ۚ وَخُلِقَ الْإِنسَانُ ضَعِيفًا) (٢٨).

٤- وقوله:(إِن تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا) (٣١)

٥- وقوله:(إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ ۖ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا (٤٠)

٦- وقوله:(إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَاءُ ۚ) ٤٨، ١١٦.

٧- وقوله:(وَمَن يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا (١١٠)

٨- وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ أُولَٰئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أُجُورَهُمْ ۗ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا (١٥٢).

وقد ألحقها الإمام السيوطي بالأقوال الخمسة عشر، فقال:

"ويلحق بهذا... وَمَا أَخْرَجَهُ ابْنُ أَبِي الدُّنْيَا فِي كتاب التوبة عن ابن عباس قال: ثماني آيَاتٍ نَزَلَتْ فِي سُورَةِ النِّسَاءِ هن خَيْرٌ لِهَذِهِ الْأُمَّةِ مِمَّا طَلَعَتْ عَلَيْهِ الشَّمْسُ وَغَرُبَتْ"(٧٨) ثم ذكر الآيات.

---

(٧٧) ديوان الشافعي، تح/ محمد إبراهيم سليم، ص ١٣٤، ١٣٥الناشر: مكتبة ابن سينا.

(٧٨) ينظر:الإتقان ١٥٣/٤، وقد ذكرها ابن كثير في تفسيره٢٥٧/٨..

ووجه كونها أرجى الآيات، وما ورد فيها من قراءات، كالآتي:

الآية الأولى(٢٦)والثانية(٢٧)والثالثة(٢٨) تَصَدَّر كلٌ منها بالخبر المبشر، وهو إرادة الله تعالى لعباده المؤمنين التوبةَ والهداية والتخفيف، وأنه خلق الإنسان ضعيفا، فهو به أرحم، وبه ألطف.

وقد ورد فيها عدة قراءات:

في قوله تعالى:(أن تميلوا) قرأ الجمهور بالتاء على الخطاب، وقرأعيسى بن عمر (يميلوا)([٧٩]) بالياء، على الغيبة، والضمير يعود على الذين يتبعون الشهوات.

وفي قراءة الجمهور بيان كرامة المخاطبين على الله تعالى؛ حيث أعلن إرادتَه التوبة عليهم، وطهر ساحتهم من اتباع الشهوات، فذكر فريقا آخر وهم (الذين يتبعون الشهوات)وهم المشركون، وأنهم يريدون أن تميلوا ميلا عظيما، وفي هذا استمالة قلوبهم نحو هذا الرب الرحيم.

وفي قراءة (يميلوا) بيان رحمة الله بالمسلمين، حيث أدخلهم جنة التوبة، فذاقوا نعيم القرب من الله، فلم ينشغلوا بشيء من الشهوات المحرمة التي انغمس فيها هؤلاء المشركون الذين يتبعون الشهوات، فلم يميلوا كما مال غيرهم.

وقد قال الطبري في تفسيرها:" يعني بذلك تعالى ذكره: والله يريد أن يراجع بكم طاعته والإنابة إليه، ليعفوَ لكم عما سلف من آثامكم، ويتجاوز لكم عما كان منكم في جاهليتكم، من استحلالكم ما هو حرَامٌ عليكم من نكاح حلائل آبائكم وأبنائكم وغير ذلك مما كنتم تستحلونه وتأتونه، مما كان غير جائز لكم إتيانه من معاصي الله "ويريد الذين يتبعون الشهوات"، يقول: ويريد الذين يطلبون لذّات الدنيا وشهوات أنفسهم فيها "أن تميلوا" عن أمر الله تبارك وتعالى، فتجوروا عنه بإتيانكم ما حرّم عليكم وركوبكم معاصيه "ميلا عظيمًا"، جورًا وعدولا عنه شديدًا"([٨٠]).

وقوله:(ميلا) بسكون الياء عند الجمهور، و قرأ الحسن بفتح الياء، وكلاهما مصدر.

وقد فرق ابن قتيبة بينهما بأنهما جميعا من"مال"، ولكنهم جعلوا "الميل"بفتح الياء فيما كان خِلْقة، فقالوا:في عنقه ميَل، وفي الشجرة ميَل، وجعلوا "الميْل"بالسكون فيما كان "فِعلا"،

([٧٩]) وهي قراءة شاذة. ينظر: مختصر ابن خالويه٢٥، والكشاف٣٩٣/١، وروح المعاني١٤/٥.

([٨٠]) تفسير الطبري٢١٢/٨.

فقالوا:مال عن الحق ميلا([٨١]).

وهذا الميَل بالفتح واضح جليٌّ في قراءة (يميلوا)؛ إذ الميَل ثابت متأصل في هؤلاء المشركين، وهو في زيادة مستمرة.

كما أن (الميْل) بسكون الياء واضح في قراءة الجمهور(تميلوا)؛ إذ أنهم يريدونكم مائلين مثلهم، فهو مستحدث إن وُجد.

وبمجموع القراءتين يتبين عظمُ فضلِ الله تعالى ورحمتِه بعباده المؤمنين؛ حيث غمرهم بتوبته ومحبته أولا وآخرا؛ فلم يتركهم فريسة للأهواء، ولم يذرهم لقمة سائغة للأعداء، من شياطين الإنس والجن على السواء.

وقوله:(وخُلق الإنسانُ ضعيفا)، قرأ الجمهور (خُلق) بالبناء للمفعول، والإنسانُ نائب فاعل،

وقرأ ابن عامر،([٨٢])وابن عباس ومجاهد([٨٣]) (وخَلق الإنسانَ) بالبناء للفاعل، و هو ضمير مستتر يعود على اسم الجلالة، أي:الله، و(الإنسانَ) مفعول به.

وفي القراءتين بيان بعلم الله لحقيقة الإنسان، وضعفه، فقد يميل إلى الشهوات، ويقع فيها، لولا عناية الله تعالى به، وتوبته عليه لانجرف فيها ولم يتمكن من الاستقامة على الجادَّة.

إلا أن بناء الفعل للمفعول-وقد عُلم الفاعل- يصور حقيقة ضعف الإنسان، من بداية خلقه، ويَلفِت الانتباه إلى هذه القضية، بل ويشحذ الذهن للتركيز عليها.

أي:"يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ إحلال نكاح الأمة وغيره من الرخصّ وَخُلِقَ الْإِنْسانُ ضَعِيفًا لا يصبر عن الشهوات وعلى مشاق الطاعات"([٨٤]).

وبناؤه للفاعل بيان لعلة توبته عليهم، إذاهم ضَعُفوا، وسَوَّلتْ لهم أنفسُهم سُوءا، كما حدث للمسلمين قبل نزول هذه الآية.

والآية الرابعة قوله:(إِن تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا) (٣١)، قال الطبري:"الكبائر التي قال الله تبارك وتعالى: "إن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم"، هي ما تقدَّم الله إلى عباده بالنهي عنه من أول"سورة النساء" إلى

([٨١]) ينظر:تأويل مشكل القرآن، لابن قتيبة(ت٢٧٦ه)، ص٣٧٠، تح/السيد أحمد صقر، وينظر:نزهة الأعين النواظر في علم الوجوه والنظائر، لابن الجوزي(ت٥٩٧ه)، ص٣٢١.

([٨٢]) في رواية شاذة.

([٨٣]) ينظر:مختصر ابن خالويه ٢٥، والبحر المحيط٢٢٨/٣.

([٨٤]) الكشاف ٥٠١/١.

رأس الثلاثين منها"([٨٥])، " وهذا من فضل الله وإحسانه على عباده المؤمنين وعدهم أنهم إذا اجتنبوا كبائر المنهيات غفر لهم جميع الذنوب والسيئات وأدخلهم مدخلا كريما كثير الخير وهو الجنة المشتملة على ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر"([٨٦]).

وقد وردت قراءات في هذه الآية الكريمة، منها ما يأتي:

في قوله (كبائر) قرأها الجمهور هكذا جمعا بوزن فعائل، وقرئت في الشواذ (كبير)([٨٧]) بوزن فعيل على التوحيد، على إرادة الجنس، يعني جنس الذنب الكبير، وذهب بعضهم إلى أن المراد به الكفر، و (كبير) أخف في اللفظ من (كبائر)، وفيها إشارة إلى أن اجتناب الكبائر ميسور على من يسره الله له، والمعصوم من عصمه الله تعالى.

وفي قوله:(نكفر عنكم سيئاتكم)، هكذا قرأ الجمهور، و قرئ:(يكفِّر)([٨٨]) بالياء على الغيبة، أي:يكفر الله عنكم.

وفي قراءة (نكفر) بالنون التفات من الغَيبة المشار إليها في (تُنْهَون عنه)أي:ينهاكم الله عنه-إلى التكلم المشار إليه بنون العظمة، والغرض منه تعظيم الرجاء في الله وحده الذي بيده تكفير السيئات، وعدم الالتفات إلى أحد سواه.

وفي قراءة (يكفِّر) بالغيبة إشارة لطيفة إلى ستره لهم في حال تكفيره سيئاتهم، كما سترهم من قبل في حال عصيانهم.

وإذا كانوا مستيقنين من عصيانهم، فإن تكفير سيئاتهم وعد من الله عز وجل، والكريم إذا وعد وفَّى وإذا أوعد عفا، ولكنه يظل في دائرة الغيب المستور عنهم؛ ليجتهدوا في عبادته، "والعبادة تجمع أصلين: غاية الحب، بغاية الذل والخضوع"([٨٩]).

وقرأ ابن عباس (من سيئاتكم) بزيادة "من"، وهي إما لبيان الجنس، فترجع لمعنى القراءة المتواترة، وإما للتبعيض، فيكون حثا لهم على الاستمرار في اجتناب الكبائر، ومواصلة الطريق.

([٨٥]) تفسير الطبري٢٣٣/٨

([٨٦]) تفسير السعدي١٧٦.

([٨٧]) نسبت إلى سعيد بن جبير ومجاهد وابن عباس وابن مسعود، ينظر:مختصر ابن خالويه ٢٥، والكشاف ٣٩٣/١.

([٨٨]) نسبت إلى المفضل عن عاصم، وأبو زيد والخليل، واللؤلؤي وخارجة عن أبي عمرو والمطوعي ينظر:السبعة ٢٣٢، والمحرر الوجيز ٣٠/٤.

([٨٩]) ينظر:مدارج السالكين لابن القيم ٧٤/١.

وفي قوله:(وندخلكم) بالنون قراءة الجمهور، وقرئ: (ويدخلكم)([٩٠]) بياء الغيبة، أي: الله.

وهذا مناسب لقراءة (يكفر) بالياء، أي: يكفر الله عنكم سيئاتكم ويدخلكم؛ لينسجم مع الإيمان بالغيب، في الأمر والنهي، وليتناسب مع بناء الفعل للمفعول في قوله:(تنهون).

وفي قوله:(مُدْخَلًا) قرئ في السبعة بفتح الميم، وهو مصدر أو اسم مكان من "دخل، وبضمها من أدخل([٩١])، والقراءتان تدلان على إكرام الله لهم، سواء في دخولهم، أم في علو درجاتهم في الجنة.

والآية الخامسة قوله:(إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ ۖ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا) (النساء/٤٠).

بيان عدل الله وفضله؛ حيث إنه سبحانه لا يظلم مثقال ذرة، و يضاعف الحسنات لأصحابها أضعافا كثيرة بحسب حالها ونفعها وحال صاحبها إخلاصا ومحبة وكمالا.

"وفي إضافة هذا العطاء العظيم إلى ذاته- تعالى-في قوله مِنْ لَدُنْهُ تشريف له، وتهويل من شأنه.

وسماه أجرا لكونه جزاء على العمل الصالح الذي عمله عباده المؤمنون الصادقون.

هذا، وقد أورد الإمام ابن كثير جملة من الأحاديث في معنى هذه الآية، ومن ذلك ما رواه الشيخان([٩٢]) عن أبى سعيد الخدري عن رسول الله ﷺ في حديث الشفاعة: فيقول الله- تعالى- لملائكته: ارجعوا فمن وجدتم في قلبه مثقال حبة خردل من إيمان فأخرجوه من النار، فيخرجون خلقا كثيرا، ثم يقول أبو سعيد: اقرؤا إن شئتم قوله- تعالى- إِنَّ اللَّهَ لا يَظْلِمُ مِثْقالَ ذَرَّةٍ"([٩٣]).

وقد وردت –في الآية الكريمة- عدة قراءات، منها:

في قوله:(مثقال ذرة) قرأ ابن مسعود (مثقال نملة)، ولعل هذا على سبيل التفسير والبيان لمقدار الذرة([٩٤])، وهو مما يتناسب وأهلَ ذلكم الزمان، وقد تبين لنا في زماننا هذا أنها تعني

([٩٠]) نسبت إلى المفضل عن عاصم، وأبو زيد والخليل، واللؤلؤي وخارجة عن أبي عمرو، والمطوعي ينظر:السبعة ٢٣٢، والإتحاف ٢٤٠/١.

([٩١]) قرأ أبو بكر عن عاصم، ونافع وأبو جعفر، والكسائي عن أبي بكر- بفتح الميم، اسم مكان أومصدر ميمي من "دخل"، وقرأ حفص عن عاصم، وحمزة والكسائي وأبو عمرو وابن عامر وابن كثير وخلف ويعقوب (مُدْخَلًا) بضم الميم، ينظر:السبعة ٢٣٢، والنشر ٢٤٩/٢، والمكرر ٢٩.

([٩٢]) رواه البخاري (٧٤٣٩)، ومسلم(١٨٣).

([٩٣]) التفسير الوسيط لطنطاوي ١٥٣/٣.

([٩٤]) ينظر:معجم القراءات للدكتور عبد اللطيف الخطيب، ويراجع:مختصر ابن خالويه٢٦، والكشاف٣٩٧/١،

شيئا دقيقا جدا لم يصل العلماء إلى معرفة كنهه، إلا بعد تجارب طويلة من خلالها، توصلوا إلى معرفة مفهوم الذرة، وهي وحدة بناء المادة، وتتكون من مكونات جد دقيقة، لها أوزان أصغر بكثير من وزن الذرة ذاتها، ولا ترى بالعين المجردة، وبهذا المفهوم ندرك معنى الآية الكريمة.

وينبغي لمن تدبر صغر الذرة، وخفة وزنها أن يزيد في الله رجاؤه، و يحسن في الله ظنه، ويخلص لله قوله وفعله.

وفي قوله:(وإن تك حسنة) قرئت بالرفع(٩٥)–على أن "تك" تامة، وحسنة فاعل، أي:وإن تقع حسنة، كما قرئت بالنصب(٩٦)-على أن "تك"ناقصة، واسمها ضمير مستتر يعود على"مثقال"، وأنث الفعل، لأن "مثقال" مضاف إلى مؤنث، وهو "ذرة"، أو مراعاة لمعناه؛ إذ هو بمعنى"زنة".

وفي القراءتين دليل على حسن الظن بالله تعالى، وقوة الرجاء فيه سبحانه، حيث إنه ذكر الحسنة ولم يذكر السيئة، ومهما تكن الحسنة فإنه يحفظها للعبد ولا يضيعها، بل يربيها له ويضاعفها.

غير أن قراءة(حسنةً) بالنصب آكد في الرجاء؛ حيث إنها تتعلق بالجملة السابقة، فهي معطوفة عليها، والضمير المستتر في (تك) يعود على (مثقال ذرة) أو على معناه (زنة مثقال) كما سبق،

ووجه كونها آكد في الرجاء أنه إذا علم العبد أن الله لا يظلم مثقال ذرة، وإن تك هذه الذرة حسنة، فإنه يضاعفها له –زاد فيه رجاؤه، وسارع في حبه والامتثال له.

وفي قوله (يضاعفها) قرأ ابن كثير وابن عامر وأبو جعفر ويعقوب وأبو رجاء وابن جبير (يُضَعِّفْها) بالقصر والتشديد(٩٧).من ضعَّف-بتشديد العين، أي:جعلها ضعفا.

قال في اللسان:والعرب تقول:ضاعفت الشيء وضعفته بمعنى واحد، ومثله امرأة مناعمة ومنعمة، وصاعر المتكبر خده وصعره، وعاقدت وعقدت، وعاقبت وعقبت، ويقال:ضعف الله تضعيفا، أي جعله ضعفا(٩٨)

والبحر المحيط٢٥١/٣.

(٩٥) نافع وابن كثير وأبو جعفر وابن محيصن والشنبوذي والحسن، ينظر:النشر ٢٢٨/٢.

(٩٦) أبو عمرو، وابن عامر وعاصم وحمزة والكسائي ويعقوب، ينظر:التيسير ٨١، والنشر٢٢٨/٢..

(٩٧) ينظر:التيسير ٨١، والنشر ٢٢٨/٢، ٢٤٩، وإعراب القراءات السبع وعللها ١٣٤/١.

(٩٨) ينظر:اللسان (ضعف)٢٠٣/٩.

وقرأها الحسن (يُضْعِفْها) بالقصر والتخفيف من"أضعف"(٩٩)، أي جعلها ضعفين.

وقرأها أيضا (نضاعفها) وكذا ابن هرمز، بالنون، من ضاعف(١٠٠)، أي جعلها ضعفين مثلين أو أمثالا متعددة، والباقون (يضاعفها) بالياء من ضاعف.

وهذه القراءات كلها متفقة على معنى فضل الله الواسع في مضاعفة الحسنة، مهما تكن زنتها.

وفي هذا من الرجاء ما فيه!

والآية السادسة(٤٨، ١١٦)، وهما آيتا (إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَاءُ ۚ)، وهذا الجزء هو المقصود من الآيتين، وإن اختلف التذييل فيهما، وقد سبق بيان المراد ب "أرجى آية"، وإن تعددت الآيات.

قال السيوطي:" وَأَرْجَى آيَةٍ فِي الْقُرْآنِ لِأَهْلِ التَّوْحِيدِ {إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ} الْآيَةَ " وَأَخْرَجَ التِّرْمِذِيُّ- وَحَسَّنَهُ- عَنْ عَلِيٍّ قَالَ: أَحَبُّ آيَةٍ إِلَيَّ فِي الْقُرْآنِ {إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ} الْآيَةَ(١٠١)

(قَوْله تَعَالَى: {إِن الله لَا يغْفر أَن يُشْرك بِهِ وَيغْفر مَا دون ذَلِك لمن يَشَاء} قيل: هَذِه أَرْجَى آيَة فِي الْقُرْآن، قَالَ ابْن عمر: كُنَّا نطلق القَوْل فِيمَن ارْتكب الْكَبَائِر بالخلود فِي النَّار، حَتَّى نزلت هَذِه الْآيَة، فتوقفنا {وَمن يُشْرك بِاللَّه فقد افترى إِثْمًا عَظِيما} أَي: اختلق إِثْمًا عَظِيما، فَإِن قَالَ قَائِل: قد قَالَ الله تَعَالَى: {إِن الله لَا يغْفر أَن يُشْرك بِهِ} وَقَالَ فِي مَوضِع آخر: {إِن الله يغْفر الذُّنُوب جَمِيعًا} فَكيف وَجه الْجمع؟

قيل أَرَادَ بِهِ: يغْفر الذُّنُوب جَمِيعًا سوى الشّرك(١٠٢).

وفيها من الرجاء ما فيها، والمعنى:"إن الله لا يغفر لكافر مات على كفره، ويغفر ما دون الكفر من الذنوب والمعاصي لمن يشاء أن يغفر له إذا مات من غير توبة. فمن مات من المسلمين بدون توبة من الذنوب التي اقترفها فأمره مفوض إلى الله، إن شاء عفا عنه وأدخله الجنة، وإن شاء عذبه ثم أدخله الجنة"(١٠٣).

وجه آية النساء(قال الله عز وجل في كتابه: (إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون

---

(٩٩) ينظر:مختصر ابن خالويه٢٦، والكشاف ٣٩٧/١.

(١٠٠) المرجعان السابقان.

(١٠١) الإتقان للسيوطي١٥٠/٤.

(١٠٢) تفسير السمعاني٤٣٤/١

(١٠٣) المرجع السابق١٧٧/٣

ذلك لمن يشاء)، (ما دون ذلك) أي ما دون الشرك من جميع الكبائر والموبقات، فإذا عذب الله فاعل الكبيرة فهذا بِعَدْلِه سبحانه وتعالى، وإن غفر له فهذا بفضله، وأفعال الله سبحانه وتعالى بين عدل وفضل ولا ثالث لفعله فالظلم والجور منتفٍ عنه، بل هذا من أفعال العباد، والفعل المطلق للإنسان لا يخرج عن واحد من ثلاث إما أن يكون عدلًا أو فضلًا أو جورًا.

إذن لو عفا عنه فهذا فضله ورحمته سبقت غضبه، ولذلك ثبت في سنن الترمذي بسند حسن عن علي رضي الله عنه أنه قال: [ما في القرآن آية أحبَّ إليَّ من هذه الآية]، وهي عنده أرجى آية في القرآن أيضًا، وثبت هذا عن حفيده علي بن الحسين زين العابدين حيث قال: [هذه أرجى آية في القرآن]، ووجه كونها أرجى آية في القرآن أن العذاب عدل والمغفرة فضل وإذا دارت أفعال الله بين العدل والفضل فالمرجح في حقه الفضل؛ لأن رحمته سبقت غضبه، يضاف إلى هذا أن كل عاصٍ لم يقع في الشرك يطمع في أن يكون ممن شاء الله له المغفرة، وما أطمعنا الله إلا ليعطينا كما قال في حق أهل الأعراف (لم يدخلوها وهم يطمعون)، وقد قال الله في الحديث القدسي [أنا عند ظن عبدي بي فليظن ما شاء] وظننا بربنا أن يغفر لنا وأن يتجاوز عنا ذنوبنا وأن يعاملنا بفضله وإحسانه إنه أرحم الراحمين وأكرم الأكرمين.

والآية السابعة قوله:(وَمَن يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا)(١١٠)

(روي عن عبد اللَّه بن مسعود- رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- قال: أرجى آية في القرآن هذه قوله: (وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ...) الآية([١٠٤]).

أشارت إلى أن" من تجرأ على المعاصي واقتحم على الإثم ثم استغفر الله استغفارا تاما يستلزم الإقرار بالذنب والندم عليه والإقلاع والعزم على أن لا يعود. فهذا قد وعده من لا يخلف الميعاد بالمغفرة والرحمة.

فيغفر له ما صدر منه من الذنب، ويزيل عنه ما ترتب عليه من النقص والعيب، ويعيد إليه ما تقدم من الأعمال الصالحة، ويوفقه فيما يستقبله من عمره، ولا يجعل ذنبه حائلا عن توفيقه، لأنه قد غفره، وإذا غفره غفر ما يترتب عليه"([١٠٥]).

والآية الثامنة قوله:(وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ أُولَٰئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ

([١٠٤]) تفسير الماتريدي٣/٣٥٦

([١٠٥]) تفسير السعدي ٢٠٠/٢٠١.

أُجُورَهُمْ ۗ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا) (النساء/١٥٢)، تعني النبي-ﷺ-وأمته(١٠٦).

وقد ورد فيها عدة قراءات، حيث قرئ في السبعة (يؤتيهم) بالياء، و(نؤتيهم) بالنون(١٠٧)، وقراءة يعقوب بالنون وضم الهاء(١٠٨)، ورجح الرازي قراءة النون، فقال:

" قَرَأَ عَاصِمٌ فِي رِوَايَةِ حَفْصٍ يُؤْتِيهِمْ بِالْيَاءِ وَالضَّمِيرُ رَاجِعٌ إِلَى اسْمِ اللَّه، وَالْبَاقُونَ بِالنُّونِ، وَذَلِكَ أَوْلَى لِوَجْهَيْنِ: أَحَدُهُمَا: أَنَّهُ أَفْخَمُ. وَالثَّانِي: أَنَّهُ مشاكل لقوله وَأَعْتَدْنا [الأحزاب: ٣١]"(١٠٩).

ورد أبو حيان بقوله:" وقول عبد الله الرازي... لَيْسَ بِجَيِّدٍ وَلَا أَوْلَوِيَّةَ فِي ذَلِكَ، لِأَنَّ الْقِرَاءَتَيْنِ كِلْتَاهُمَا مُتَوَاتِرَةٌ، هَكَذَا نَزَلَتْ، وَهَكَذَا أُنْزِلَتْ."(١١٠).

وفي القراءتين مزيد رجاء في فضل الله وكرمه؛ حيث إن قراءة (يؤتيهم) تتناسب مع الإيمان بالله (إيمانا غيبيا)، فالجزاء من جنس العمل، والقراءة الأخرى بالنون تدل على أن الله عز وجل يؤتيهم على قدر عظمته، لا على قدر إيمانهم.

وفي قوله تعالى:(سوف نؤتيهم) قرأ عبد الله بن مسعود:سنؤتيهم، بالسين(١١١)، وكأنه يفسر معنى(سوف) المفهمة لمعنى المستقبل البعيد، وهوأن أيامهم في الدنيا-وإن طالت- فهي قصيرة، إذا ما قورنت ببقائهم مخلدين في جنات النعيم.

ولعل في (سوف) إشارةً إلى ما يَلْقَونَه في الدنيا من ابتلاءات جرَّاءَ إيمانهم، مصداقا لقوله تعالى:(أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ) (العنكبوت/٢)، وكلا الحرفين لا يخلو من رجاء؛ إذ أن مستقبل حياتهم بيد الله تعالى وحده، وكل آتٍ قريبٌ، غيرَ أن سِنَةَ الوصل سَنَة، وسَنَة الهجر سِنَة.

الموضع الخامس:

قوله تعالى:(ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ ۚ أَلَا لَهُ الْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ)(الأنعام/٦٢).

---

(١٠٦) تفسير القرطبي ٦/٦.

(١٠٧) ينظر:السبعة ٢٤٠، والنشر ٢٥٣/٢.

(١٠٨) بالياء حفص عن عاصم، وعياش، وقرأ بالنون، ابن كثير وأبو عمرو وابن عامر وحمزة والكسائي وأبو بكر عن عاصم وخلف وأبو جعفر وعبد الله بن مسعود، وقراءة يعقوب بالنون وضم الهاء(نؤتيهم)المرجع السابق.

(١٠٩) تفسير الرازي٢٥٦/١١.

(١١٠) البحر المحيط١٢٠/٤.

(١١١) ينظر:كتاب المصاحف للسجستاني ٦٠، مصحف ابن مسعود.

قال الآلوسي:" (ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللَّهِ) في عين الجمع المطلق([112]) (مَوْلاهُمُ) أي: مالكهم الذي يلي سائر أحوالهم؛ إذ لا وجود لها إلا به (الْحَقِّ) وكل ما سواه باطل.

وذكر بعض أهل الإشارة أن هذه أرجى آية في كتاب الله تعالى؛ بناء على أن الله تعالى أخبر برجوع العبد إليه سبحانه، وخروجه من سجن الدنيا وأيدي الكاتبين، واصفا نفسه له بأنه مولاه الحق المشعر بأن غيره سبحانه لا يعد مولى حقا، ولا شك أنه لا أعز للعبد من أن يكون مرده إلى مولاه، أَلا لَهُ الْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ الْحاسِبِينَ"([113]).

وهذا الذي ذكره الآلوسي معنى إشاري، قد لا يتفق مع معنى الآية وسياقها، فمعنى الآية كما ذكر هو" والمراد «ثم ردوا» بعد البعث والحشر أو من البرزخ إِلَى اللَّهِ أي إلى حكمه وجزائه أو إلى موضع العرض والسؤال مَوْلاهُمُ أي مالكهم الذي يلي أمورهم على الإطلاق ولا ينافي ذلك قوله تعالى: (وَأَنَّ الْكافِرِينَ لا مَوْلى لَهُمْ) [محمد: ١١]؛ لأن المولى فيه بمعنى الناصر الْحَقِّ أي العدل أو مظهر الحق أو الصادق الوعد.

... وفي التفسير الكبير أن لفظ المولى والولي مشتقان من القرب وهو سبحانه القريب ويطلق المولى أيضا على المعتق وذلك كالمشعر بأنه جل شأنه أعتقهم من العذاب وهو المراد من قوله سبحانه «سبقت رحمتي غضبي»

وأيضا أضاف نفسه إلى العبيد وما أضافهم إلى نفسه، وذلك نهاية الرحمة، وأيضا قال عز اسمه: (مَوْلاهُمُ الْحَقِّ) والمعنى:أنهم كانوا في الدنيا تحت تصرفات الموالي الباطلة وهي النفس، والشهوة، والغضب كما قال سبحانه: (أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلهَهُ هَواهُ) [الجاثية: ٢٣] فلما مات الإنسان تخلص من تصرفات الموالي الباطلة وانتقل إلى تصرف المولى الحق انتهى. وهو كما ترى"([114]).

وأرى-والله أعلم- أن في الآية وعدا ووعيدا، وإن كان جانب الوعد أظهر، فلا تخلو من رجاء.

([112]) الجمع في ألسنة المتصوفين عبارة عن: «شهود الحق بلا خلق»، ويرى ابن عربي: «الجمع: إشارة إلى حق بلا خلق».، «الجمع: في الأحوال، جمع السير في الحبّ والذوق. وفي الولايات: جمع الروح في المشاهدة. وفي الحقائق: جمع الروح في مقام الخفي في المعاينة والسكر، والاتصال. وفي النهاية: جمع العين الأحدية، وجمع الجمع: الاستهلاك بالكلية، والفناء عما سوى الله، ينظر:اصطلاحات الصوفية، ص٢٠، وموسوعة مصطلحات التصوف الإسلامي، ص ٢٥٣.

([113])روح المعاني١٨١/٤

([114]) روح المعاني ١٦٨/٤..

وقد جاء في الآية الكريمة من القراءات ما يأتي:

في قوله: (إلى الله مولاهم الحق) قرأ الجمهور(الحقِّ) بالخفض، وهو صفة لاسم الجلالة (الله)، وقرأ الحسن والأعمش وقتادة (الحق) بالنصب، على قطع الصفة، للمدح، ويجوز في الإعراب، نصبه على المصدر، والتقدير:الرد الحق، أو على تقدير:أعني.

والراجح من أوجه النصب أن يكون على المدح لاسم الجلالة؛ لموافقة القراءة المتواترة في الإعراب، لجلال المعنى، وتقوية الرجاء.

وقرئ:(الحقُّ) بالرفع، على قطع الصفة بالرفع، أي:هو الحق([١١٥]).

وقد ورد (الحق) صفة لله تعالى، أو اسما من أسمائه الحسنى في قوله تعالى:{ذلك بأن الله هو الحق}(الحج: ٦) وقوله تعالى: {فتعالى الله الملك الحق}(طه: ١١٤) وفي حديث ابن عباس- رضـــي الله عنهما- عن النبي- ﷺ- أنه قال: (.. أنت الحق وقولك الحق)([١١٦])، ومعنى الحق الأمر الثابت الذي لا يسع إنكاره، ويلزم إثباته والاعتراف به، ووجود الباري عز ذكره أولى ما يجب الاعتراف به ولا يسع أحد جحوده؛ إذ لا مثبت تظاهرت عليه من الدلائل البينة الباهرة ما تظاهرت على وجود الباري جل ثناؤه.

وفي قوله:(ألا له الحكم) هكذا قرأ الجماعة ب(ألا) أداة استفتاح وتنبيه، وقرأ عيسى بن عمر (وله الحكم) بالواو بدلا من (ألا)([١١٧]).

فعلى القراءة المتواترة قوله:"أَلا لَهُ الْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ الْحاسِبِينَ تَذْيِيلٌ، وَلِذَلِكَ ابْتُدِئَ بِأَدَاةِ الِاسْتِفْتَاحِ الْمُؤْذِنَةِ بِالتَّنْبِيهِ إِلَى أَهَمِّيَّةِ الْخَبَرِ، وَالْعَرَبُ يَجْعَلُونَ التَّذْيِيلَاتِ مُشْتَمِلَةً عَلَى اهْتِمَامٍ أَوْ عُمُومٍ أَوْ كَلَامٍ جَامِعٍ، وَقَدَّمَ الْمَجْرُورَ فِي قَوْلِهِ لَهُ الْحُكْمُ لِلِاخْتِصَاصِ، أَيْ لَهُ لَا لِغَيْرِهِ... وَهَذَا يَتَضَمَّنُ وَعْدًا وَوَعِيدًا لِأَنَّهُ لَمَّا أُتِيَ بِحَرْفِ الْمُهْلَةِ فِي الْجُمَلِ الْمُتَقَدِّمَةِ وَكَانَ الْمُخَاطَبُونَ فَرِيقَيْنِ: فَرِيقٌ صَالِحٌ وَفَرِيقٌ كَافِرٌ، وَذَكَرَ أَنَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ كَانَ الْمَقَامُ مَقَامَ طَمَاعِيَةٍ وَمُخَالَفَةٍ فَالصَّالِحُونَ لَا يُحِبُّونَ الْمُهْلَةَ وَالْكَافِرُونَ بِعَكْسِ حَالِهِمْ، فَعُجِّلَتِ الْمَسَرَّةُ لِلصَّالِحِينَ وَالْمُسَاءَةُ لِلْمُشْرِكِينَ بِقَوْلِهِ: وَهُوَ أَسْرَعُ الْحاسِبِينَ"([١١٨]).

الموضع السادس:

([١١٥]) ينظر:مختصر ابن خالويه ٣٧، ٣٨.

([١١٦]) رواه البخاري، ١/ ٣٧٧، كتاب التهجد باب التهجد بالليل.

([١١٧]) وهي قراءة شاذة، ينظر:مختصر ابن خالويه ٣٨.

([١١٨]) ينظر:التحرير والتنوير ١٧٩/٧، ٢٨٠.

قوله تعالى:(الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ)(الأنعام/٨٢)

قال الإمام القرطبي رحمه الله: " وَحُكِيَ أَنَّ الصَّحَابَةَ رِضْوَانُ اللَّهِ عَلَيْهِمْ تَذَاكَرُوا الْقُرْآنَ فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: قَرَأْتُ الْقُرْآنَ مِنْ أَوَّلِهِ إِلَى آخِرِهِ فَلَمْ أَرَ فِيهِ آيَةً أَرْجَى وأحسن من قوله تبارك وتعالى:" قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلى شاكِلَتِهِ" فإنه لا يشاكل بالعبد إلا العصيان ولا يشاكل بالرب إلا الغفران. وَقَالَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: قَرَأْتُ الْقُرْآنَ مِنْ أَوَّلِهِ إلى آخره فلم أر فِيهِ آيَةً أَرْجَى وَأَحْسَنَ مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى:" بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ. حم. تَنْزِيلُ الْكِتابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ. غافِرِ الذَّنْبِ وَقابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقابِ ذِي الطَّوْلِ " قَدَّمَ غُفْرَانَ الذُّنُوبِ عَلَى قَبُولِ التَّوْبَةِ، وَفِي هَذَا إِشَارَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ. وَقَالَ عُثْمَانُ بْنُ عَفَّانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: قَرَأْتُ جَمِيعَ الْقُرْآنِ مِنْ أَوَّلِهِ إِلَى آخِرِهِ فَلَمْ أَرَ آيَةً أَحْسَنَ وَأَرْجَى مِنْ قوله تَعَالَى:" نَبِّئْ عِبادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ".. قُلْتُ(أي:القرطبي): وَقَرَأْتُ الْقُرْآنَ مِنْ أَوَّلِهِ إِلَى آخِرِهِ فَلَمْ أَرَ آيَةً أَحْسَنَ وَأَرْجَى مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى:" الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ [الأنعام:٨٢](١١٩).

والذي " دفع القرطبي رحمه الله إلى أن يقول: إن هذه الآية أرجى آية في كلام الله؛ لأن الله أثبت فيها أن من مات على التوحيد ولم يشرك بالله شيئًا تكفل الله له بالأمن يوم القيامة، وبالهداية في الدنيا"(١٢٠).وهذا وجه الرجاء فيها.

والمعنى: أى: هؤلاء الذين أخلصوا العبادة لله وحده لا شريك، له، ولم يشركوا به شيئا هم الآمنون يوم القيامة، المهتدون في الدنيا والآخرة(١٢١).

هذا وقد وردت أحاديث صحيحة فسرت الظلم في هذه الآية بالشرك، ومن ذلك ما رواه البخاري ومسلم عن عبد اللَّه بن مسعود قال: لما نزلت الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمانَهُمْ بِظُلْمٍ قال الصحابة: وأينا لم يظلم نفسه؟ فنزلت إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ(١٢٢)، وروى الإمام أحمد عن ابن مسعود قال: لما نزلت هذه الآية الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمانَهُمْ بِظُلْمٍ شق ذلك على الناس فقالوا يا رسول الله: فأينا لا يظلم نفسه؟ قال: «إنه ليس الذي تعنون. ألم تسمعوا ما قال العبد الصالح

---

(١١٩) ينظر:تفسير القرطبي ٣٢٣/١٠، عند تفسيره للآية رقم(٨٤) من سورة الإسراء.

(١٢٠) سلسلة محاسن التأويل للمغامسي٣٢/٢.، سلسلة محاسن التأويل، دروس صوتية قام بتفريغها موقع الشبكة الإسلامية http://www.islamweb.net، [الكتاب مرقم آليا، ورقم الجزء هو رقم الدرس- ٧٣ درسا]

(١٢١) ينظر:تفسير ابن كثير٢٩٢/٣.

(١٢٢) رواه البخاري في صحيحه (الفتح ١: ٨١، ٨: ٢٢٠)، بنحوه ورواه مسلم في صحيحه ٢: ١٤٣، ١٤٤.

إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ إنما هو الشرك»(١٢٣).

القراءات الواردة فيها وأثرها في المعنى:

في قوله:(ولم يلبسوا) بفتح الياء قراءة الجمهور، من الثلاثي(لبس)، وقرأعكرمة (يلبسوا) بضم الياء، من (ألبس)(١٢٤).

يقال: لبس عليه الأمر لبسا:خلطه عليه؛ حتى لا يعرف حقيقته(١٢٥)، وألبس الشيء الشيء:غطاه،

والقراءتان تدلان على أنهم لم يخلطوا إيمانهم بشرك، إلا أن مضارع ألبس-المتعدي بالهمزة آكد في الدلالة على إحاطة التغطية، بمعنى شمولها جميع الإيمان، وهذا لا يكون إلا مع الشرك الذي بمعنى (الكفر) والعياذ بالله، كما قال سبحانه:(وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ)(البقرة/٨١).

وهذا أقوى في الرجاء؛ لأنه لما انتفى عنهم إلباس إيمانهم بالشرك، تحقق لهم الأمن والهداية، وإن عصوا في غير الشرك..

وفي قوله:(إيمانهم) بكسر الهمزة قراءة الجمهور، وقرأ أبو واقد وعيسى (أيمانهم)(١٢٦) جمع يمين.

وهذا على التوسعة في معنى(الظلم) كما ذهب بعض المفسرين(١٢٧)، فيكون إلباس الإيمان(جمع يمين "بمعنى القسم")- بظلم أي: بفجور وكذب، كما جاء في الحديث:"اليمين الفاجرة التي يقتطع بها الرجل مال المسلم تعقم الرحم"(١٢٨)، و في الحديث أيضا:"الحلف منفقة للسلعة، ممحقة للبركة"(١٢٩)؛ و في حديث آخر:"اليمين الكاذبة منفقة للسلعة، ممحقة للكسب"(١٣٠).

---

(١٢٣) أخرجه أحمد في المسند برقم(٤٠٢١).

(١٢٤) ينظر: البحر المحيط١٧١/٤، والمحرر الوجيز٣٦٧/٥.

(١٢٥) المعجم الوسيط، (لبس) ٨١٢/٢.

(١٢٦) وهي قراءة شاذة. ينظر: مختصر ابن خالويه٣٨.

(١٢٧) ينظر: روح المعاني ١٩٦/٤.

(١٢٨) رواه أحمد- حديث: ٢٠٢٤٤، وابن أبي عاصم في الآحاد والمثاني، حديث: ١٠٩٤.

(١٢٩) متفق عليه، ينظر: صحيح البخاري مع الفتح٣١٥/٤، برقم٢٠٨٧، وصحيح مسلم مع شرح النووي٤٨/١١، برقم١٦٠٦.

(١٣٠) (اليمين الكاذبة منفقة للسلعة، ممحقة للكسب، (وفي لفظ:) للبركة، قال الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة- المجلد السابع:أخرجه أحمد (٢٣٥/٢ و٢٤٢ و٤١٣).

وقد يكون إلباس الإيمان بظلم على تفسير الظلم بالشرك أيضا؛ وذلك إذا حلف بغير الله تعالى، كما جاء في الحديث، قال ﷺ:"من حلف بشيء دون الله فقد أشرك"(١٣١).

وهنا سؤال يطرح نفسه!

ما علاقة الأيمان (جمع يمين بمعنى القسم) بالإيمان بكسر الهمزة؟

ولم أجد –فيما وقفت عليه – إجابة شافية، ولا مُهَدِّئة، وقد أنعمت فيه النظر، فرأيت له وجها، وأرجو أن يلقى القبول، وهو أن العرب سموا الحلف والقسم يمينا؛ لأنهم كانوا يتماسحون بأيمانهم، فيتحالفون، وكانوا إذا تحالفوا ضرب كل امرئ منهم يمينه على يمين صاحبه(١٣٢).

والإيمان (بكسر الهمزة) عهد وميثاق بين العبد وربه، وهذا من معاني التصديق، والميثاق هو العهد المؤكد باليمين، ومنه قوله تعالى:(الَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِن بَعْدِ مِيثَاقِهِ)[البقرة: ٢٧]، وقد اختلف المفسرون في المراد بالعهد على أقوال:أحدها: أنه وصية الله إلى خلقه وأمره لهم بطاعته، ونهيه لهم عن معصيته في كتبه المنزلة على ألسنة أنبيائه المرسلين(١٣٣).

ولذا كانت المصافحة باليمين عند الدخول في الدين، وكذلك عند مبايعة الإمام المسلم ومن في حكمه حيث كانت البيعة على عهد الرّسول ﷺ وخلفائه الرّاشدين بالمصافحة, وفي مبايعة أبي بكر رضي الله عنه ورد أنّ عمر رضي الله عنه قال له في السّقيفة: ابسط يدك أبايعك فبسط يده فبايعه ثمّ بايعه المهاجرون والأنصار(١٣٤).

وامتحان إيمان المرأة المهاجرة، كان بالحلف، كما في سورة الممتحنة في قوله تعالى:(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ ۖ اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ ۖ) (الممتحنة/١٠)، وقد فسّره ابن عبّاس رضي الله عنهما بقوله: " وكانت المحنة أن تستحلف بالله أنّها ما خرجت من بغض زوجها ولا رغبةً من أرض إلى أرض ولا التماس دنيا ولا عشقًا لرجل منّا بل حبًا لله ولرسوله "(١٣٥).

فتكون (الأيمان) في هذه القراءة-على عموم المعنى لا على خصوص سياقها- بمعنى

---

(١٣١) أخرجه الإمام أحمد بإسناد صحيح عن عمر رضي الله عنه، وخرج أبو داود والترمذي بإسناد صحيح عن ابن عمر رضي الله عنهما عن النبي ﷺ أنه قال: ((من حلف بغير الله فقد كفر أو أشرك).

(١٣٢) ينظر:تاج العروس (يمن)

(١٣٣) ينظر:البحر المحيط ٢٧٢/١.

(١٣٤) رواه البخاري برقم (٦٨٣٠)، من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

(١٣٥) ينظر:تفسير القرطبي ٥٦/٨.

عهودهم ومواثيقهم التي أخذوها على أنفسهم عندما دخلوا في هذا الدين- من طاعة الله ورسوله، ولم يخلطوها بظلم (بشرك أو غيره من نواقض الإيمان)، كما أمرنا ربنا بقوله: ﴿ وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴾ [النحل: ٩١].

ولا يبعد هذا المعنى عن سياق الآية الكريمة؛ حيث إنها وقعت في معرض الحديث عن محاجة إبراهيم قومه لما خالطوا فطرتهم (عهودهم ومواثيقهم مع الله) بشرك، حتى ألجؤوا إبراهيم –عليه السلام – إلى محاجتهم؛ حتى يثبت لهم وحدانية الله رب العالمين.

وفي قوله:(بظلم)، قرأ مجاهد (بشرك)(١٣٦)، وهي صريحة في تفسير معنى الظلم، ومما يؤكد ذلك أن العكبري قد ذكر أنه قول لمجاهد في معنى الظلم المذكور في الآية، وهو كذلك عند أكثر المفسرين"(١٣٧).

الموضع السابع:

قوله تعالى:(قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا إِن يَنتَهُوا يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ)(الأنفال/٣٨).

وقد ذكره الزركشي والسيوطي وغيرهما(١٣٨).

قَالَ الشِّبْلِيُّ(١٣٩): إِذَا كَانَ اللَّهُ أَذِنَ لِلْكَافِرِ بِدُخُولِ الْبَابِ إِذَا أَتَى بِالتَّوْحِيدِ وَالشَّهَادَةِ أَفَتَرَاهُ يُخْرِجُ الدَّاخِلَ فِيهَا وَالْمُقِيمَ عَلَيْهَا؟!.

فالوجه:أن الله تعالى لم يغلق الباب في وجه الكافرين، بل فتحه لهم إن هم نزعوا مما هم فيه من الكفر، وشهدوا لله بالوحدانية ولرسوله بالرسالة، وفي هذا رجاء عظيم للموحدين المؤمنين، بأنهم في حفظ الله ورحمته، يثبتهم على التوحيد، حتى يلقوه، و يكرمهم عند الوفود عليه.

---

(١٣٦) ينظر: المحرر الوجيز ٢٦٧/٥، البحر المحيط ١٧١/٤.

(١٣٧) التبيان للعكبري١٩٠/٤.

(١٣٨) ينظر الإتقان ١٥٣/٤.

(١٣٩) الشبلي البغدادي، قيل: اسمه دلف بن جحدر، أصله من الشبلية قرية، ومولده بسامراء، وكان أبوه من كبار حجاب الخلافة، وولي هو حجابة أبي أحمد الموفق ثم لما عزل أبو أحمد من ولاية، حضر الشبلي مجلس بعض الصالحين، فتاب ثم صحب الجنيد وغيره، وكان فقيها عارفا بمذهب مالك، وكتب الحديث عن طائفة، وقال الشعر، وله ألفاظ وحكم وحال وتمكن، وقيل: إن ابن مجاهد قال له: أين في العلم إفساد ما ينفع. قال: قوله: فطفق مسحا بالسوق والأعناق ولكن يا مقرئ أين معك أن المحب لا يعذب حبيبه ؟ فسكت ابن مجاهد، قال: قوله: نحن أبناء الله وأحباؤه قل فلم يعذبكم ؟، توفي ببغداد سنة أربع وثلاثين وثلاثمائة عن نيف وثمانين سنة.ينظر:سير أعلام النبلاء، للذهبي١٦٧/١٥.

وَقَالَ يَحْيَى بْنُ مُعَاذٍ الرَّازِيُّ فِي هَذِهِ الْآيَةِ إِنَّ تَوْحِيدَ سَاعَةٍ يَهْدِمُ كُفْرَ سَبْعِينَ سَنَةً، وَتَوْحِيدُ سَبْعِينَ سَنَةً كَيْفَ لَا يَقْوَى عَلَى هدم ذنب ساعة؟!(١٤٠)

"واللام عند جمع للتعليل، أي قل لأجلهم إِنْ يَنْتَهُوا عما هم فيه من معاداة الرسول ﷺ بالدخول في الإسلام يُغْفَرْ لَهُمْ ما قَدْ سَلَفَ منهم من الذنوب التي من جملتها المعاداة والانفاق في الضلال، وقال أبو حيان: الظاهر أن اللام للتبليغ وأنه عليه الصلاة والسلام أمر أن يقول هذا المعنى الذي تضمنته ألفاظ هذه الجملة المحكية بالقول سواء قاله بهذه العبارة أم غيرها"(١٤١).

القراءات الواردة وأثرها في المعنى:

قرأ ابن مسعود:(إن تنتهوا)(١٤٢) على الخطاب، وعلى هذه القراءة تكون اللام في (للذين كفروا) للتبليغ، لا للتعليل، وعلى قراءة الجمهور(ينتهوا) يجوز فيها المعنيان، (التعليل) أي:قل يا رسول الله:لأجل الذين كفروا، أو (التبليغ) بالمعنى.

وسواء أكانت اللام للتبليغ أم للتعليل فإنها لا تخلو من تأكيد معنى الرجاء؛ فإذا كانت عناية الله تعالى بشأن تبليغهم هذا عن طريق خاتم النبيين، ورحمة الله للعالمينﷺ، فكيف تكون عنايته سبحانه بالموحدين من أمته؟!.

ونسب إلى ابن مسعود أنه قرأ(نغفر لكم)(١٤٣)، وهذه مناسبة لقراءة(تنتهوا) على معنى التبليغ، ونون العظمة تدل على انفراد الله تعالى بالمغفرة دون أحد سواه، فهما يكن الذنب عظيما فعفو الله أعظم.

كما ذكر الكسائي أنه في مصحف ابن مسعود:(يُغفَر لكم)(١٤٤)، وبناء الفعل للمفعول يشير إلى هوانه ويسره إن تحقق الشرط، فانتهوا عما أنتم عليه من الكفر ومعاداة النبي ﷺ، وسيُغفَر لكم.وقرئ:(يَغفِر لهم)(١٤٥)، بضمير الغائب، وضمير الفاعل لله تعالى.

الموضع الثامن:

(وَآخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا عَسَى اللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ۚ

---

(١٤٠) تفسير الرازي١٥/٤٨٣.

(١٤١) روح المعاني ١٩٢/٥.

(١٤٢) وهي قراءة تفسيرية شاذة. ينظر:البحر المحيط٤/٤٩٤.

(١٤٣) ينظر:روح المعاني٩/٢٠٦.

(١٤٤) ينظر:مختصر ابن خالويه٥١.

(١٤٥) ينظر:الكشاف٢/١٥، والبحر ٤/٤٩٤.

إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ)(التوبة/١٠٢).

ذَكَرَ الطَّبَرِيُّ "عَنْ حَجَّاجِ بْنِ أَبِي زَيْنَبَ قَالَ: سَمِعْتُ أَبَا عُثْمَانَ يَقُولُ: مَا فِي الْقُرْآنِ آيَةٌ أَرْجَى عِنْدِي لِهَذِهِ الْأُمَّةِ مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى:" وَآخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلًا صالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا"(١٤٦)

و هذا قول أبي عثمان النهدي كما أخرجه عنه ابن أبي الدنيا في كتابه التوبة(١٤٧)، وذكره السيوطي في الإتقان(١٤٨).

ووجه الرجاء في الآية الكريمة أن (عسى) صادرة عن الله تعالى، فما بعدها متحقق الوقوع، وَالْمُفَسِّرُونَ قَالُوا: إِنَّ عَسَى مِنَ اللَّهِ يَدُلُّ عَلَى الْوُجُوبِ، وما من مخاطب بهذه الآية-بعد الرسول ﷺ-إلا وهو داخل فيها.

قال القرطبي:"وَهَذِهِ الْآيَةُ وَإِنْ كَانَتْ نَزَلَتْ فِي أَعْرَابٍ فَهِيَ عَامَّةٌ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ فِيمَنْ لَهُ أَعْمَالٌ صَالِحَةٌ وَسَيِّئَةٌ، فَهِيَ تُرْجَى"(١٤٩).

الموضع التاسع:

(وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ اللَّيْلِ ۚ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ۚ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّاكِرِينَ)(هود/١١٤).

ذكرها الشيخ الشعراوي-رحمه الله- وقال:هي"أَرْجَى آية في كتاب الله "، ثم قال:"ولذلك لو نظرنا إلى الأعمال لوجدنا كل عمل له مجاله في عمره إلا مجال الصلاة، فمجالها كل عمر الإنسان"(١٥٠).

والآية الكريمة فيها أمر بإقامة الصلاة، وبيان فضل الله على عباده في تكفير السيئات بسبب الحسنات المتنوعة من ذكر وصلاة وصدقات وغير ذلك.

القراءات الواردة في الآية وأثرها في المعنى:

في قوله:(زلفا) قرأ الجمهور:زُلَفًا، بضم الزاي، وفتح اللام، جمع زُلْفة، مثل:ظلمة وظلم، وهي الطائفة من الليل، وقال قوم:الزلفة:أول ساعة من الليل بعد مغيب الشمس.

---

(١٤٦) تفسير الطبري١٤/٤٥٢.

(١٤٧) ينظر:كتاب التوبة لابن أبي الدنيا ٦٣.

(١٤٨)الإتقان للسيوطي٤/١٤٩-١٥٣

(١٤٩) تفسير القرطبي٨/٢٤٣.

(١٥٠) ينظر:خواطر الشعراوي ١١/٦٧٢٨

وقرأ آخرون([151]):(زُلُفا) بضمتين، وهو مفرد مثل حُلُم، أو جمع زُلُفة مثل: بسُر وبُسُرة بضم السين، وقيل الضم للإتباع، أو جمع زليف.

وقرئ:(زُلْفا)([152]) بضم فسكون جمع زُلْفة، أو جمع زليف، مثل القرب والقريب.([153])

وقرئ:(زُلْفى)([154]) على وزن فُعْلى، مثل حُبْلى، صفة الواحد من المؤنث، ومعناها:قريبة.

وعليه فإن المعنى يشمل القيام للصلاة في أول الليل(المغرب والعشاء) أو أي جزء من الليل (للتنفل أو التهجد)، وقد اختلفوا في هذه الآية أمكية هي كبقية السورة، فيكون المراد بالصلاة وقتين في أول النهار وآخره، قبل فرض الصلوات الخمس، أم مدنية، بعد فرضها، ولا يؤثر هذا في معنى الرجاء الكائن في الآية الكريمة لمن تدبره.

الموضع العاشر:

(وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ)(الرعد/٦).

قال النسفي: أي مع ظلمهم أنفسَهم بالذنوب، ومحله الحال أي ظالمين لأنفسهم، قال السدي: يعني المؤمنين، وهي أرجى آية في كتاب الله؛ حيث ذكر المغفرة مع الظلم، وهو بدون التوبة، فإن التوبة تزيلها وترفعها.([155])، و قال ابْنَ عَبَّاسٍ: هي أَرْجَى آيَةٍ فِي الْقُرْآنِ([156])، وَكَذَا حَكَاهُ عَنْهُ مَكِّيٌّ وَلَمْ يَقُلْ: عَلَى "إِحْسَانِهِمْ([157]).

وأهل الرجاء ينظرون إلى هذا الجزء وحده من الآية الكريمة، فيغلبون الرجاء على الخوف.

و الحق أنها في الرجاء والخوف معا بالنظر إلى ما أعقبها من قوله تعالى:(وإن ربك لشديد العقاب)، وقد ذكر ابن كثير في تفسيره من المعاني والآثار ما يقوي عندنا الرجاء([158]).

([151]) هي قراءة شاذة نسبت إلى عيسى بن عمر، وابن محيصن وابن أبي إسحاق وأبو جعفر وشيبة والشنبوذي وطلحة بن مصرف بخلاف عنه، وهي رواية نصر بن علي ومحبوب بن الحسن والأزرق وهارون كلهم عن أبي عمرو وابن أبي إسحاق والأعمش، ينظر: مختصر ابن خالويه ٦١، والمحتسب١/٣٣٠،، والنشر٢/.٢٩٢

([152]) هي من الشواذ، ونسبت إلى ابن محيصن والحسن وغيرهما.

([153]) ينظر:التبيان للعكبري ، ومعاني القرآن للزجاج٣/٨٢.

([154]) هي من الشواذ، ونسبت إلى ابن محيصن ومجاهد، ينظر:الكشاف ١١٨/٢، والبحر٢٧٠/٥.

([155]) ينظر: تفسير النسفي١٤٣/٢.

([156]) ينظر:إعراب القرآن للنحاس٢٢٠/٢.

([157]) ينظر:إعراب مشكل القرآن لمكي ، والإتقان للسيوطي ١٥٠/٤-١٥٣.

([158]) ومنه مارواه الحافظ ابن عساكر في ترجمة الحسن بن عثمان أبي حسان الزيادي: أنه رأى رب العزة في النوم- ورسول الله ﷺ- واقف بين يديه يشفع في رجل من أمته، فقال له: ألم يكفك أني أنزلت عليك في سورة الرعد: (وإن ربك لذو مغفرة للناس على ظلمهم) ؟ قال: ثم انتبهت، ينظر:تفسير ابن كثير.

الموضع الحادي عشر:

(رُبَمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ) [الحجر:٢].

والمعنى: ربما يودّ الذين كفروا بالله فجحدوا وحدانيته لو كانوا في دار الدنيا مسلمين.[١٥٩]

ووجه الرجاء فيها بيان ما للمسلمين كافة من مكانة عند الله تعالى، من مغفرة ذنوبهم، وعفو الله عنهم، ورحمته بهم، ولولا ذلك لما ذكر ربنا جل وعلا أن الكافرين يتمنون أن لو أسلموا، حتى يكونوا مع المسلمين يوم القيامة.

القراءات الواردة وأثرها في المعنى:

في قوله:(ربما) قرئ في السبعة[١٦٠] بضم الراء، وفتح الباء مخففة، وهي لغة الحجاز وكثير من قيس، وقرئ في السبعة أيضا[١٦١] بضم الراء، وبفتح الباء مشددة (رُبَّما)، وهي لغة قيس وتميم وربيعة وأسد، وهناك عدة قراءات شاذة فيها لا تخرج عن كونها لغات[١٦٢].

قال ابن عطية: وربَّما للتقليل، وقد تجيء شاذة للتكثير، وقال قوم إن هذه من تلك[١٦٣].

وقد حاول بعض المفسرين الجمع بين القولين فقال: من قال بأن رُبَما هنا للتكثير نظر إلى كثرة تمنيهم أن لو كانوا مؤمنين، ومن قال بأنها للتقليل نظر إلى قلة زمان إفاقتهم من العذاب بالنسبة إلى زمان دهشتهم منه، وهذا لا ينافي أن التمني يقع كثيرا منهم في زمن إفاقتهم القليل، فلا تخالف بين القولين[١٦٤].

وفي قوله:(مُسْلِمين) هكذا قرأ الجمهور، اسم فاعل من أسلم، أي:دخل في الإسلام.

وقرئ:(مُسَلِّمين)[١٦٥] من سَلَّم، أي:سلموا الأمر لله.

وتدور مادة "س ل م" فى اللغة حول معنى: البراءة من العيب والمرض وغير ذلك، ومن

---

(١٥٩) تفسير الطبري٦١/١٧.

(١٦٠) هي قراء متواترة قرأ بها نافع وعاصم وأبو جعفر وأبو عمرو بخلاف عنه، وأبو جعفر وغيرهم، ينظر: السبعة٣٦٦، والنشر٣٠١/٢.

(١٦١) هي قراءة متواترة، قرأ بها ابن عامر وابن كثير وأبو عمرو وحمزة والكسائي والأعمش ويعقوب وخلف، ينظر:المرجعان السابقان.

(١٦٢) كقراءة (رُبُما) بضمتين، وقراءة(رَبَما)بفتحتين، وقراءة(رُبَّتما) بضم الراء، وفتح الباء المشددة، وزيادة التاء، ينظر:مختصر ابن خالويه٧٠، والكشاف١٨٦/٢، والبحر المحيط٤٤٤/٥.

(١٦٣) المحرر الوجيز٣٤٩/٣.

(١٦٤) ينظر:التفسير الوسيط لطنطاوي١١/٨.

(١٦٥) ينظر:إعراب القراءات الشواذ للعكبري٧٤٣/١.

ذلك السَّلامة والسَّلام. والتسليم: الرِّضَا بالحكم؛ لأنه براءة من المخالفة([١٦٦]).

فالتسليم إذعان وانقياد تام، كأنَّ المرء يُسَلِّم نفسه خالصة لله عز وجل.

وتسليم الأمر لله من سمات المؤمنين، والقنوط من رحمة الله من سمات الكافرين، وقد جاء في السورة ذاتها:(وَمَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ) {الحجر:٥٦}.فأنعِم به من سبيل إلى الرجاء، وأعظم به من باب لمن انقطعت دونه الأسباب، وأوصدت في وجهه الأبواب.

الموضع الثاني عشر:

(نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ)(الحجر/٤٩).

وقد سبق في الخبر الذي أورده القرطبي وغيره، وفيه:" وَقَالَ عُثْمَانُ بْنُ عَفَّانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: قَرَأْتُ جَمِيعَ الْقُرْآنِ مِنْ أَوَّلِهِ إِلَى آخِرِهِ فَلَمْ أَرَ آيَةً أَحْسَنَ وَأَرْجَى مِنْ قوله تَعَالَى:" نَبِّئْ عِبادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ "([١٦٧]).

وهَذِهِ الْآيَةُ وِزَانُ قَوْلِهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ:" لَوْ يَعْلَمُ الْمُؤْمِنُ مَا عِنْدَ اللَّهِ مِنَ الْعُقُوبَةِ مَا طَمِعَ بِجَنَّتِهِ أَحَدٌ وَلَوْ يَعْلَمُ الْكَافِرُ مَا عِنْدَ اللَّهِ مِنَ الرَّحْمَةِ مَا قَنَطَ مِنْ رَحْمَتِهِ أَحَدٌ" أَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ. وَقَدْ تَقَدَّمَ فِي الْفَاتِحَةِ «٣». وَهَكَذَا يَنْبَغِي لِلْإِنْسَانِ أَنْ يُذَكِّرَ نَفْسَهُ وَغَيْرَهُ فَيُخَوِّفُ وَيُرَجِّي، وَيَكُونُ الْخَوْفُ فِي الصِّحَّةِ أَغْلَبُ عَلَيْهِ مِنْهُ فِي الْمَرَضِ([١٦٨]).

ووجه الرجاء ما فيها من إعلان المغفرة والرحمة من الله تعالى، والإخبار عن نفسه سبحانه باسمين من أسمائه الحسنى، ومن صفات الجمال، وهما (الغفور الرحيم)، وطلب إذاعته وبثه بواسطة خير رسله أجمعين، سيدنا محمد ﷺ، ونسبة العباد إليه تعالى زيادة تشريف، و تأنيس بقربه.

وقد يقال:إنها ليست خالصة في الرجاء، إذْ أعقبها بقوله:(وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ) (الحجر/٥٠)، وهذا أسلوب القرآن الكريم في الجمع بين الخوف والرجاء؛ لئلا ييأس العاصي من رحمة الله، ولا يغتر الطائع بطاعته.

وتبقى كِفَّةُ الرجاء في الآية الكريمة راجحةً؛ إذْ أنها سبقت الأخرى وتقدمت عليها، وقد جاء في الحديث القدسي:(إن رحمتي سبقت غضبي)([١٦٩]).

([١٦٦]) ينظر:لسان العرب(سلم)٢٨٩/١٢.

([١٦٧]) ينظر:تفسير القرطبي٣٤/١٠.

([١٦٨]) المرجع السابق ذاته.

([١٦٩]) متفق عليه، أخرجه البخاري برقم ٢٩٧٤، ومسلم برقم٢٧٥١، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

وكذا من جهة تركيبها ومقابلتها بالأخرى؛ لأنه سبحانه أخبر في الآية الأولى عن ذاته المقدسة (أني) وأكدها بضمير المتكلم (أنا) وجاء الخبر صفتين من صفاته تعالى وهما (الغفور الرحيم)، فالآية كلها خالصة له سبحانه، تتحدث عنه جل وعلا، وليس فيها شيء سواه.

وهذا المعنى يتجلى عندما تطرح تركيبا مقابلا، كأن تقول(أن نعيمي هو النعيم المقيم) مقابل(وأن عذابي هو العذاب الأليم)، هنا يتساوى الخبر، فلا رجحان!

ولكن هيهات هيهات لما بين الإنباء عن ذاته العلية، بصفتي المغفرة والرحمة، وبين الإخبار عن عذابه بأنه العذاب الأليم، بل لو نظر المؤمن بعين الرجاء إلى مغزى الإضافة في كلمة (عذابي)، و صرح بأن الذي يملك ذاك العذاب هو الغفور الرحيم، لكان له وجه مقبول، ولا يلام المرء بعد اجتهاده.

الموضع الثالث عشر:

(قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِ)(الإسراء/٨٤).

وقد سبق الخبر الذي أورده القرطبي، وفيه:" فقال الصديق رضي الله عنه وأرضاه: قرأت القرآن كله من أوله إلى آخره فلم أر آية أعظم وأرجى من قول الله: {قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلَتِهِ} [الإسراء:٨٤]، ثم علل فقال: إن العصيان يشاكل العبد، والغفران يشاكل الرب تبارك وتعالى؛ لأن الغفران أليق بالرب، كما أن العصيان أقرب إلى العبد"(١٧٠).

وأورده الزركشي في البرهان(١٧١)، والسيوطي في الإتقان(١٧٢)

وأرى بُعْدَ هذا التأويل عن معنى الآية الكريمة، فالتنوين في قوله:(كل) عوض عن مضاف إليه محذوف، أي:كل أحد منكم، وهذه بعض أقوال المفسرين في معنى(شاكلته) كما ذكرها البغوي:

قال ابن عباس:على ناحيته، وقال الحسن وقتادة على نيته، وقال مقاتل:على خليقته، قال الفراء: على طريقته التي جبل عليها، وقال القتيبي:على طبيعته وجبلته.

وقيل: على السبيل الذي اختاره لنفسه وهو من الشكل يقال: لست على شكلي ولا شاكلتي وكلها متقاربة تقول العرب: طريق ذو شواكل إذا تشعبت منه الطرق، ومجاز الآية: كل يعمل

---

(١٧٠) ينظر:تفسير القرطبي١٠/٣٢٢.

(١٧١) ينظر:البرهان في علوم القرآن١/٤٤٦.

(١٧٢) ينظر:الإتقان في علوم القرآن٤/١٥٠

على ما يشبهه كما يقال في المثل: كل امرئ يشبهه فعله(١٧٣).

وقد قرأ الخليل:(على شَكِلَتِه)، والشَكِلَة:الشاكلة.(١٧٤)

والمعنى:يقول عزّ وجلّ لنبيّه محمد ﷺ: قل يا محمد للناس: كلكم يعمل على شاكلته: على ناحيته وطريقته (فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ) هو منكم (أَهْدَى سَبِيلا) أهدى طريقا إلى الحقّ من غيره(١٧٥).

أي:على ما يليق به من الأحوال، إن كان من الصفوة الأبرار، لم يشاكلهم إلا عملهم لرب العالمين ومن كان من غيرهم من المخذولين، لم يناسبهم إلا العمل للمخلوقين، ولم يوافقهم إلا ما وافق أغراضهم(١٧٦).

ولعل له وجها في الرجاء، وطريقُه قوله تعالى في الآية السابقة:(وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَىٰ بِجَانِبِهِ ۖ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ كَانَ يَئُوسًا)(الإسراء/٨٣)، فهاتان حالتان:عمل الرب مع الإنسان الإنعام والإحسان، وعمل الإنسان مع الرب الجحود والنكران، ثم جاءت هذه الجملة جارية مجرى المثل:(كل يعمل على شاكلته).

الموضع الرابع عشر:

(إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ)(طه/٤٨).

وقد ذكره الثعلبي(ت٤٢٧ه) قائلا:"رأيت في بعض التفاسير أن هذه أرجى آية للموحدين في القرآن"(١٧٧)، وهو مما ذكره الزركشي(١٧٨)، والسيوطي(١٧٩)، وقال:حكاه الكرماني في العجائب(١٨٠).

وقد نسب القرطبي هذا القول لابن عباس، حيث قال: وقال ابن عباس: وهذه أرجى آية

(١٧٣) ينظر: معالم التنزيل في تفسير القرآن = تفسير البغوي، المؤلف: محيي السنة، أبو محمد الحسين بن مسعود البغوي (المتوفى: ٥١٠هـ) ١٢٤/٥، تح محمد عبد الله النمر- عثمان جمعة ضميرية- سليمان مسلم الحرش الناشر: دار طيبة للنشر والتوزيع، ط: الرابعة، ١٤١٧ هـ- ١٩٩٧ م.

(١٧٤)وهي من الشواذ، ينظر الشوارد، للصغاني، ٢٥، تح/مصطفى حجازي، نشر مجمع اللغة العربية بمصر، ط/١ لسنة١٩٨٣م.

(١٧٥) ينظر:تفسير الطبري٥٤٠/١٧.

(١٧٦) ينظر:تفسير السعدي٤٦٥.

(١٧٧) ينظر:الكشف والبيان عن تفسير القرآن= تفسير الثعلبي٢٤٦/٦.

(١٧٨) ينظر:البرهان٤٤٦/١.

(١٧٩) ينظر:الإتقان١٥٢/٤.

(١٨٠) يقصد به:غرائب التفسير وعجائب التأويل٧١٨/٢، وفيه قال الكرماني:والغريب أنها أرجى آية في القرآن

للموحدين لأنهم لم يكذبوا ولم يتولوا([181]).

ووجه الرجاء أنها خصصت العذاب بصنف من الناس وهو من كذب بآيات الله، وأعرض عن طاعته، فأما من لم يُكَذِّب ولم يُعْرِضْ، فيُرْجَى له العفوُ والمغفرةُ والرحمةُ.

ويؤيِّد هذا أن الآية وردت في سياق المُسَاجلة بينَ السَّحَرة التائبين وفرعون، وقد جاء في فاتحتها أمرٌ رباني إلى موسى وهارون: ﴿ اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى * فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيِّنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى ﴾ [طه: ٤٣-٤٤]، فَذُهِل قتادة كيف يكون القول اللين، والخطاب الهين في حقِّ رأس الكفر فرعون؟! حتى صدَح قائلًا: ما أحَلمَك ربنا وما أكرَمك! أإذا كان هذا حِلمك وكَرَمَك بمن قال: أنا ربكم الأعلى؛ فكيف حِلمُك وعفوكُ وكرمكُ بِعَبدٍ سجدَ بينَ يديك وقال: سبحان ربِّي الأعلَى؟!

الموضع الخامس عشر:

(وَلَا يَأْتَلِ أُولُو الْفَضْلِ مِنكُمْ وَالسَّعَةِ أَن يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ۖ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا ۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ ۗ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ)(النور/٢٢).

وهذه أرجى آية عند الإمام عبد الله بن المبارك، كما عند مسلم في صحيحه([182]).

وذكرها الزركشي والسيوطي([183]) وغيرهما.

ووجه كونها أرجى آية أنها نزلت في قطع أبي بكر الصديق نفقة مسطح بن أثاثة، وحلف على ذلك، لأن مسطحا كان ممن خاض مع الخائضين في حادثة الإفك، فأنزل الله في قسم أبي بكر على قطع نفقته هذه الآية.

وفيها أثنى الله تعالى على مسطح مع ذنبه المجمع على كبره، بأنه من المهاجرين في سبيل الله، وترحم له بأنه من المساكين، وأمر بالعفو عنه، ووعد بالمغفرة جزاء لمن عفا عنه.

القراءات الواردة وأثرها في المعنى:

قرأ القراء العشرة ماعدا أبا جعفر:(ولا يأتل) على وزن يفْتَعِل، وقرا أبو جعفر:(ولا يتألَ)، على وزن يتفعل([184])، وكلتاهما من الألِيَّة بوزن عَطِيَّة بمعنى اليمين والحلف والقسم.

([181]) ينظر:تفسير القرطبي٢٠٤/١١.

([182]) صحيح مسلم، باب في حديث الافك وقبول توبة القاذف، (٤/ ٢١٣٦). وينظر:البرهان ٤٤٦/١، والإتقان١٤٩/٤-١٥٣.

([183]) ينظر:البرهان١/ ٤٤٦، ٤٤٧، والإتقان١٥٠/٤.

([184]) ينظر:النشر٣٣١/٢

كما قال الشاعر[185]:

قليلُ الألايــا حافــظٌ ليمــينهِ فإن سَبَقَتــــْ مِنْهُ الأَلِيَّــةُ بَرَّتِ

ولا يأتل أى لا يحلف أولوا الفضل منكم والسعة على ألا يأتوا إحسانهم وصدقاتهم ومعروفهم لأولى القربى والمساكين والمهاجرين فى سبيل الله

وقراءة (يأتل) تحتمل أن تكون من الأَلْو بمعنى الامتناع والتقصير نوع من الامتناع، يقال:ما ألوت أن أفعله، أي:ما تركت، ولا يألو خيرا:لا يدعه ولا يزال يفعله[186]، ولا يأتل ولا يمتنع عن النفقة فاحتملت قراءة الجمهور:(لا يأتل) معنيين هما لايحلف,ولايمتنع، وقراءة أبى جعفر توضح وترجح أحد المعنيين؛ فإنها لاتحتمل إلا معنى الحلف، وهذا الذى صدر من أبى بكر رضي الله عنه عندما حلف ألا ينفق على مسطح ابن أثاثة فنزلت الآية تعاتبه فقال بلى نحب أن يغفر الله لنا، وأعاد نفقته على مسطح ضعف ما كان ينفق عليه رضي الله عنه وأرضاه!

وفي قوله:(أن يؤتوا) قرئ:أن تؤتوا بالتاء[187] على الالتفات من الغيبة إلى الخطاب.

وفيه إظهار العناية بالمخاطب، وبيان مكانته، وعظيم أمر الإنفاق وإعطاء النفقة، وكأن في الآية حينئذ نهي عام عن الحلف ووقوعه من أصحاب الفضل والسعة كأمثال الصديق، وخطاب خاص بأن تؤتوا النفقة وما قطعتموه على أنفسكم من المعروف.

وفي قوله:(وليعفوا وليصفحوا) قرئ:ولتعفوا ولتصفحوا[188] بالتاء، التفات من الغيبة في (ولا يأتل) إلى الخطاب؛ لإظهار العناية بالمخاطب وبما يؤمر به من شأن العفو والصفح وتأكيدهما.

وعرف عن العرب-كما قرر النحاة- أن الأمر باللام للمخاطب قليل، فالأصل إذا كان مرفوعُ فعلِ الطلب فاعلًا مخاطبًا أن يستغني عن اللام بصيغة"افعل" فيقال:واعفوا واصفحوا.

ويرد عليهم بهذه القراءة ومثيلاتها، ثم إن القراءات (متواترها وشاذها) هي الأصل الأول

---

(١٨٥) هو كثير عزة، والبيت من الطويل، وهو في ديوانه٣٢٥، جمعه وشرحه د/إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت-لبنان، ١٣٩١هـ/١٩٧١م.

(١٨٦) ينظر:اللسان (ألو)٤٠/١٤.

(١٨٧) هي قراءة شاذة، نسبت إلى أبي حيوة وابن قطيب وأبي البرهسم، ينظر:مختصر ابن خالويه١٠١، والكشاف٢ /٣٨٠، والبحر المحيط٦/٤٤٠.

(١٨٨) هي من الشواذ، ونسبت إلى عبد الله، والحسن وسفيان بن الحسين وأسماء بنت يزيد وعلي، ينظر:مختصر ابن خالويه١٠١، والمحتسب ١٠٦/٢.

والأوثق للغة العربية، وكونهم لم يراعوها عند وضع القواعد اللغوية والنحوية، فذلك عملهم، و من حفظ حجة على من لم يحفظ.

فالذى جرى من مسطح ذنب عظيم، يتكلم على أمه عائشة أمنا وأم المؤمنين- رضي الله عنها- هى زوج النبى ﷺ، وهى بنت الصديق، هى الصديقة الحصان الرزان، حبيبة حبيب الله ﷺ، فمسطح عندما تكلم بالإفك ارتكب جناية عظيمة، وأبو بكر-رضي الله عنه-ما قابله بشىء إلا أنه حلف أن يقطع إحسانه عنه، ولو قطع الإحسان دون جناية من مسطح لما كان عليه لوم، إن شاء أن يحسن فله أجر وإن شاء ألا يحسن ضاع منه ذلك الأجر، فكيف وقد أساء مسطح؟!

و لكن الله-عز وجل- ما رضي هذا من أبى بكر-رضي الله عنه- فأنزل الآية الكريمة، وفي ختامها قوله:(ألا تحبون أن يغفر الله لكم والله غفور رحيم) فالجزاء من جنس العمل، فإذا غفرت يغفر لك، وإذا سامحت يسامحك الله، فقال أبو بكر: بلى، والله ما أنزعها منه أبدا، وأعاد بالنفقة عليه.

وكأن المؤمن الراجي رحمة ربه يقول: يارب أحسنتَ إليَّ فى هذه الحياة، فكيف تقطع إحسانك عنى بعد الممات؟! أنا أحوج إلى الإحسان بعد موتى من إحسانك إليَّ فى حياتى، فالشروع ملزم فى مذهب النعمان، فكيف بكرم الرحمن؟! فالله جل وعلا أولى بإتمام المعروف والكرم.

قال العلماء: إن في هذه الآية الكريمة دليلًا على أن كبائر الذنوب لا تحبط العمل الصالح؛ لأن مسطح بن أثاثة من عمله الصالح الهجرة في سبيل الله، ومع ذلك وقع في قذف أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها، وخاض في الإفك، فأقيم الحد عليه، ومع ذلك ثبت الله سبحانه له وصف الهجرة والمهاجرين في سبيل الله.

فقذفُ عائشة رضي الله عنها من الكبائر، ومع ذلك لم يبطل هجرته؛ لأن الله سبحانه وتعالى قال بعد هذه الكبيرة: (والمهاجرين في سبيل الله) فدل على أن هجرته في سبيل الله كانت خالصة، ولم يحبطها قذفه لأم المؤمنين رضي الله تعالى عنها.

وإذا كان في الآية رجاء في عفو الله ورحمته، ولكن لا ينبغي أن يحتج بفعل مسطح.

ومما يناسب ذكره عند منقبة الصديق هذه ما ذكر أنه كان للشيخ إسماعيل بن المقري اليمني ولد يجري عليه نفقة كل يوم فقطعها لشيء بلغه عنه، فكتب لأبيه رقعة فيها:

لا تقطعن عادة بر ولا تجعل عتاب المرء في رزقه

واعــــف عن الذنـــــــب فإن الذي نرجوه عـــفو الله عن خلقـــــــــه
وإن بـــدا من صاحــب زلـــــــة فاستره بالإغضـــاء واستبـــــقـه
فإن قدر الذنـــــب من مســـــطح يحـــط قدر النـــجم من أفـــــقه
وقد بـــدا منه الـــذي قــد بــــدا وعوتـــب الصــــديق فـــي حــقه

فكتب إليه أبوه قائلا:

قد يمـــــنع المضـــطر من ميـتة إذا عصـــى بالســـير في طـــرقه
لأنه يقـــوى عـــلى توبـــــــة توجـــب إيصـــالًا إلى رزقـــــه
لو لم يتـــب من ذنـــبه مسطـــح ما عوتـــب الصديـــق في حقـــــه[189]

فهو يحتج بقوله تعالى:(أَلا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ) [النور:٢٢] في حق مسطح.

ولم يعاتب الصديق في حقه إلا بعدما أظهر مسطح الندم، وتاب من هذه الكبيرة.

وقوله: (قد يمنع المضطر من ميتة) هذه قاعدة معروفة، وهي: أن الرخص لا تناط بالمعاصي، فالإنسان إذا فعل معصية فليس له أن يترخص بالرخص الشرعية حال مباشرته المعصية، كالشخص الذي يسافر لأجل معصية معينة يرتكبها، فليس له أن يقصر الصلاة، وليس له أن يأكل الميتة إذا اضطر؛ لأنه في سفر معصية، فالرخص لا تناط بالمعاصي؛ فلذلك يقول هذا الأب لولده: قد يمنع المضطر من ميتة إذا عصى في السير في طرقه يعني: إذا مشى في الطرق في سفر معصية فيمنع من هذا الرزق.

وقال القرطبي: قال الإمام مسلم: قال حبان بن موسى: قال عبد الله بن المبارك: هذه أرجى آية في كتاب الله.

ثم قال بعد هذا: قال بعض العلماء: هذه أرجى آية في كتاب الله تعالى من حيث لطف الله بالقذفة العصاة اهـ.[190]

الموضع السادس عشر:

(وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا. يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا. إِلَّا مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ ۗ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا)(الفرقان/٦٨-٧٠).

---

(١٨٩) ينظر:زاد المسلم فيما اتفق عليه البخاري ومسلم، لأبي الجكني٥/٢٨٢.

(١٩٠) ينظر:تفسير القرطبي١٢/٢٠٩.

والذين ذهبوا إلى أن هذه الآية هي أرجى آية لعصاة المؤمنين استدلوا بما ثبت في الصحيحين عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: (إن ناسًا من المشركين قتلوا فأكثروا، وزنوا فأكثروا، ثم أتوا رسول الله ﷺ فقالوا:إن الذي تقول وتدعو إليه لحسن، لو تخبرنا أن لما عملنا كفارة، فنزلت: (وَالَّذِينَ لا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ) [الفرقان:٦٨] إلى قوله: غَفُورًا رَحِيمًا [الفرقان:٧٠]، ونزل أيضًا: قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا [الزمر:٥٣])(١٩١).

ووجه الرجاء فيها الفرج بعد الضيق، وذلك في استثناء التائبين من هذا العذاب، بل وبشارتهم بتبديل سيئاتهم حسنات، في الدنيا بالإيمان بدلا من الكفر، وبالطاعة بدلا من المعصية وبالعفة والطهارة بدلا من الزنا، وغير ذلك من محاسن الإسلام، وفي الآخرة بتكفير السيئات، وغفران الذنوب، أو بوضع مكان كل سيئة حسنة، وما ذلك على الله بعزيز.

وفي ذلك يقول القرطبي:" وروى أبو ذر عن النبي ﷺ: أن السيئات تبدل بحسنات، وروي معناه عن سلمان الفارسي وسعيد بن جبير وغيرهما، وقال أبو هريرة: ذلك في الآخرة فيمن غلبت حسناته على سيئاته، فيبدل الله السيئات حسنات، وفي الخبر: ليتمنين أقوام أنهم أكثروا من السيئات، فقيل: ومن هم؟ قال: الذين يبدل الله سيئاتهم حسنات، رواه أبو هريرة عن النبي ﷺ ; ذكره الثعلبي والقشيري، وقيل: التبديل عبارة عن الغفران;أي يغفر الله لهم تلك السيئات لا أن يبدلها حسنات. قلت (والكلام للإمام القرطبي): فلا يبعد في كرم الله تعالى إذا صحت توبة العبد أن يضع مكان كل سيئة حسنة ; وقد قال ﷺ لمعاذ: أتبع السيئة الحسنة تمحها وخالق الناس بخلق حسن، وفي صحيح مسلم عن أبي ذر قال: قال رسول الله ﷺ: إني لأعلم آخر أهل الجنة دخولا الجنة وآخر أهل النار خروجا منها: رجل يؤتى به يوم القيامة، فيقال اعرضوا عليه صغار ذنوبه وارفعوا عنه كبارها فتعرض عليه صغار ذنوبه، فيقال عملت يوم كذا وكذا كذا وكذا وعملت يوم كذا وكذا كذا وكذا، فيقول: نعم، لا يستطيع أن ينكر وهو مشفق في كبار ذنوبه أن تعرض عليه فيقال: له فإن لك مكان كل سيئة حسنة، فيقول يا رب قد عملت أشياء لا أراها هاهنا، فلقد رأيت رسول الله ﷺ ضحك حتى بدت نواجذه.

وقال أبو طويل: يا رسول الله، أرأيت رجلا عمل الذنوب كلها ولم يترك منها شيئا، وهو في ذلك لم يترك حاجة ولا داجة(١٩٢) إلا اقتطعها فهل له من توبة؟ قال: هل أسلمت؟ قال: أنا

(١٩١) أخرجه الشيخان، البخاري برقم٤٨١٠، ومسلم ١٢١.

(١٩٢) قال مبشر بن عبيد: الحاجة التي تقطع على الحاج إذا توجهوا، والداجة التي تقطع عليهم إذا قفلوا.

أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أنك عبد الله ورسوله. قال نعم، تفعل الخيرات وتترك السيئات يجعلهن الله كلهن خيرات. قال: وغدراتي وفجراتي يا نبي الله؟ قال: نعم. قال: الله أكبر! فما زال يكررها حتى توارى. ذكره الثعلبي"(١٩٣)

القراءات الواردة وأثرها في المعنى:

في قوله:(لا يدعون) من دع يدعو، والمراد بالدعاء:العبادة؛ لأن الدعاء بمعنى الطلب تقرب إلى المعبود، واعتزاء إليه، واستكفاء به، أي لا يعبدون مع الله إلها آخر، كما كانوا في الجاهلية، ويؤيدّه ما في «صحيح مسلم» من حديث عبد الله بن مسعود قال: قلت يا رسول الله أيُّ الذنب أكبر؟ قال: " أن تدعوَ لله نِدًّا وهو خَلَقَك. قلتُ: ثم أيُّ؟ قال: أن تقتل ولدك خِيفةَ أن يطْعَم معَك. قلت: ثم أيّ: قال: أن تُزانيَ حليلةَ جارك " فأنزل الله تعالى تصديقها {والذين لا يدعون مع الله إلها آخرًا} إلى {أثامًا}، وفي رواية ابن عطية ثم قرأ رسول الله ﷺ هذه الآية(١٩٤).

و قرئ: لا يدَّعون(١٩٥) من ادّعى يدَّعِي؛ وهي مفسرة لمعنى الدعاء الكائن في القراءة الأولى، فهو من الدعوى ومعناه:لا يثبتون الإلوهية لغير الله تعالى، ومرده إلى القراءة الأولى (لا يدْعون)، فالقراءتان متعاضدتان غير متناقضتين، وقامت القراءتان مقام آيتين، فمدحهم بكونهم لا يعبدون إلا الله، ولا يعتقدون في إثبات الألوهية لأحد سواه.

وفي قوله:(ولا يقْتلون) من قَتَل المخفف العين، بمعنى لا يتسببون في إزهاق النفس، وقرئ يقتِّلون(١٩٦) من قتَّل مثقل العين، والتشديد للمبالغة، ويدخل فيه، المبالغة في الفعل الواحد القتل كالتمثيل بالجثة مثلا، أو كثرة القتل وهو المناسب للمعنى وسبب النزول، كما ورد في صحيح مسلم أيضا عن ابن عباس: أن ناسا من أهل الشرك قتلوا فأكثرو...إلخ، ا كما أن فيه مزيدَ رجاءٍ، لقوله تعالى بعد ذلك (إلا من تاب).

وقرئ أيضا:يقاتلون(١٩٧)، من قاتل، وهو يفيد المفاعلة من الطرفين، وكأن فيه دلالة على أنهم لا يدخلون في قتال من حرم الله قتله إلا بالحق، فيحترزون من قتال المسلم؛ كقول هابيل لقابيل(لَئِن بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ ۖ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ

---

(١٩٣) ينظر:تفسير القرطبي٧٥/١٣.

(١٩٤) ينظر:تفسير الطبري٣٠٣/١٩.

(١٩٥) قراءة شاذة، نسبت إلى جعفر بن محمد، ينظر:فتح الباري٣٥/٩.

(١٩٦) قراءة شاذة، نسبت إلى ابن جامع كما في فتح الباري٣٥/٩.

(١٩٧) المرجع السابق ذاته.

الْعَالَمِينَ) (المائدة/٢٤)، ولقوله ﷺ:(إذا التقى المسلمان بسيفيهما فالقاتل والمقتول في النار، قالوا يا رسول الله:هذا القاتل، فما بال المقتول؟ قال:إنه كان حريصا على قتل صاحبه)(١٩٨).

وفي قوله:(يلق) من لَقِيَ الثلاثي مخففا، بمعنى يستقبل(هو) العذابَ مواجهةً بقوة، وقرئ يُلَقَّ(١٩٩) بوزن يُفَعَّل، بمعنى يوصل إليه العذاب بقوه، فهو يُلَقَّاه، وفيه فائدتان:

الفائدة الأولى:المبالغة في تلقي العذاب، أي مضاعفته، وقد فسرت بقوله:(يضاعف له العذاب)، فهذا مناسب لتلك القراءة.

الفائدة الأخرى:بناء الفعل للمفعول، يدل على أن تلقيه العذاب يأتي من كل الجهات، لا من جهة معينة.

وعلى قدر ما في هذه القراءات من معاني العذاب، والترهيب يكون عظم الرجاء لمكان التوبة في الآية الكريمة.

وفي قوله:(أثاما) هكذا قرأ الجمهور، ومعناه:العقاب والنكال والخذلان، وفيه عدة قراءات شاذة: فقرئ (إثما)(٢٠٠)، وأصل الإثم: الحمل الثقيل الذي يُبَطِّئ صاحبه عن السير، ومعناه: الذنب والوزر، وإفراده هنا لأن ما ذكر من الأوزار كلها من جنس واحد، وهو كونها كبائر.

وقرئ:(آثاما-جمع إثم)(٢٠١)، فكل واحدة مما ذكر كبيرة من الكبائر، وهي كفيلة بإيقاعه في العقاب

وقرئ (أياما)(٢٠٢) جمع يوم، يعني شدائد، والعرب تعبر عن ذلك بالأيام، ومنه قوله تعالى: (ويوم يحشرهم وما يعبدون)(الفرقان/١٧)، وقوله:(ويوم يعض الظالم على يديه) (الفرقان/٢٧)، وقوله: (وكان يوما على الكافرين عسيرا) (الفرقان/٢٦)، وقرئ (عقابا)(٢٠٣)، وهو تفسير لقوله:(أثاما).

وفي قوله:(يضاعَفْ)(٢٠٤) بالبناء للمفعول، مجزوما بدلا من جواب الشرط، من ضاعف،

---

(١٩٨) رواه الشيخان وأبو داود والنسائي.

(١٩٩) شاذة، نسبت إلى ابن مسعود وأبي رجاء وعمر بن ذر، ينظر:مختصر ابن خالويه، وإعراب القراءات الشواذ٢/٢٠٦.

(٢٠٠) نسبت إلى عبد الله بن صالح العجلي عن حمزة، ينظر:فتح الباري٣٥/٩.

(٢٠١) نسبت إلى ابن مسعود، ينظر:المرجع السابق ذاته.

(٢٠٢) نسبت إلى ابن مسعود أيضا، ينظر:الكشاف٤١٦/٢، والبحر المحيط٥١٥/٦.

(٢٠٣) نسبت إلى ابن زيد وقتادة، ينظر:تفسير القرطبي٧٥/١٣.

(٢٠٤) هي قراءة متواترة، قرأ بها نافع وأبو عمرو وابن عامر وحمزة والكسائي وحفص عن عاصم وخلف، ينظر:السبعة ٤٦٧، النشر ٣٣٤/٢.

قال سيبويه([٢٠٥]): مضاعفة العذاب لقي الأثام. قال الشاعر:

متى تأتنا تلمم بنا في ديارنا　　تجد حطبا جزلا ونارا تأججا

وقال آخر:

إن علي اللَّــــه أن تبايــــعا　　تؤخذ كرها أو تجيء طائعا

بدلُ اشتمال من {يلق أثامًا}... وجُعل الجزاء مضاعفة العذاب والخلود.

فأما مضاعفة العذاب فهي أن يعذّب على كل جُرم مما ذكر عذابًا مناسبًا ولا يكتفَى بالعذاب الأكبر عن أكبر الجرائم وهو الشرك، تنبيهًا على أن الشرك لا ينجي صاحبه من تبعة ما يقترفه من الجرائم والمفاسد، وذلك لأن دعوة الإسلام للناس جاءت بالإقلاع عن الشرك وعن المفاسد كلها([٢٠٦]).

وفيها عدة قراءات أُخَرَ، من المتواتر والشاذ، فقرئ(يضاعَفُ)مبنيا للمفعول، مرفوعا([٢٠٧]).

وأما الرفع ففيه قولان: أحدهما أن تقطعه مما قبله، والآخر أن يكون محمولا على المعنى; كأن قائلا قال: ما لقي الأثام؟ فقيل له: يضاعف له العذاب([٢٠٨]).

وقرئ(يضاعِفْ)([٢٠٩])بالبناء للفاعل، مجزوما بدلا من جواب الشرط، من ضاعف، أي الله عز وجل، وحينئذ يكون(العذاب) مفعولا به.

وقرئ:(نضاعِفْ)([٢١٠])، مبنيا للفاعل، مجزوما على البدلية من (يلق) المجزوم جوابا للشرط، وبالنون من ضاعف، والعذابَ مفعول به، و نون العظمة تدل على عظم الفاعل وشدة الفعل.

و(نُضَعِّفُ)([٢١١])، بالنون، من ضعَّف مشدد العين، مبنيا للفاعل، مرفوعا.

وقرئ:(يُضَعَّفْ)([٢١٢])، من ضعَّف مشدد العين، مبنيا للمفعول، مجزوما، وهو يدل على

([٢٠٥]) ينظر:الكتاب لسيبويه٨٦/٣.

([٢٠٦]) تفسير الطبري٣٠٣/١٩.

([٢٠٧]) هي قراءة متواترة، قرأ بها ابن عامر وعاصم في رواية أبي بكر، والمفضل والأعمش، كما في السبعة٤٦٧.

([٢٠٨]) ينظر:تفسير القرطبي٧٧/١٣.

([٢٠٩]) نسبت إلى طلحة بم مصرف، ينظر:البحر المحيط٥١٥/٦.

([٢١٠]) ينظر:إعراب القراءات الشواذ ٢٠٧/٢.

([٢١١]) نسبت إلى العمري عن أبي جعفر وشيبة وطلحة بن سليمان، ينظر:المحتسب١٢٥/٢.

([٢١٢]) قراءة متواترة، قرأ بها ابن عامر وابن كثير، وأبوجعفر ويقوب، والحسن وسهل وشيبة، ينظر:السبعة٤٦٧، والنشر٢٢٨/٢.

التكثير والمبالغة في العذاب.

و(يُضَعَّفُ)([٢١٣])، من ضعَّف، مشدد العين، مبنيا للمفعول، مرفوعا.

و(يُضْعِفُ)([٢١٤])، من أضعف أي:زاده عذابا فوق عذابه، فهو بمعنى ضاعف.

وفي هذه القراءات بيان العقاب الشديد، والجزاء الأوفى، ومضاعفة العذاب، لمن اقترف شيئا مما ذكر من الكبائر، والتعبير عن المضاعفة بالبناء للفاعل مرة وللمفعول أخرى، ليس من قبيل التنوع القرائي فحسب، وإنما للتنوع في درجات الترهيب بحسب تنوع درجات المخاطبين والمدعويين، فمنهم من يناسبه ذكر العذاب ومضاعفته، إذا غلبته نفسه وشهوته، واتبع هواه، فهو في غفلة، وهذا فيما سوى الشرك، وينطبق عليه الحديث: قال رسول الله ﷺ: (لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن، ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن، ولايشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن. وفي رواية والتوبة معروضة بعد)([٢١٥]).

ومنهم من يرعوِي بذكر الله تعالى، وصفات جلاله، فهذا يناسبه ماجاء منسوبا إلى رب العزة سبحانه، وبناء الفعل لفاعله الحقيقي، وهو الله تعالى، ولا سيما القراءة بنون العظمة.

وقد اختلفت الصيغ الواردة في القراءات من المفاعلة في(يضاعف) إلى التفعيل في (يضعَّف) لللإشارة إلى تداخل العذاب وتنوعه بلا فاصل ولا هوادة، وهذا كقوله تعالى:(كلما خبت زدناهم سعيرا)(الإسراء/٩٧).

ولعل سائلا يسأل:أين الرجاء في هذا العذاب المضاعف المتصل؟

والإجابة في قوله:(إلا من تاب...إلى قوله:فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات وكان الله غفورا رحيما)، فما أعظم الفرح بعد الترح، وما أجل الفرج بعد الشدة، وما أسعد الراجين بعد خوفهم!

وفي قوله:(ويَخْلُدْ)([٢١٦])بفتح الياء، وسكون الخاء، وضم اللام، وسكون الدال، عطفا على جواب الشرط، من الخُلْد، وهو البقاء الدائم.

قرئ(يَخْلُدُ)([٢١٧])بالرفع، على الاستئناف، وهما قراءتان متواترتان، وهناك عدة قراءات

([٢١٣]) نسبت إلى ابن عامر والأعمش، كما في السبعة٤٦٧، والنشر٢٢٨/٢.

([٢١٤]) المرجع السابق ذاته.

([٢١٥]) رواه البخاري برقم٦٤٥٧، ومسلم برقم١١٥، من حديث عن أبي هريرة رضي الله عنه.

([٢١٦]) قراءة متواترة، نسبت إلى نافع وابن عامر وابن كثير وأبي عمرو وجمزة والكسائي وحفص عن عاصم وأبي جعفر ويعقوب والحسن وسهل، ينظر:السبعة٤٦٧، والنشر٣٣٤/٢.

([٢١٧]) قراءة متواترة، نسبت إلى ابن عامر في رواية، وأبي بكر والمفضل عن عاصم والأعمش، ينظر:المرجعان

شاذة، وهي كالآتي:(يُخْلَدْ)([218])بالبناء للمفعول، مجزوما عطفا على الجواب، و(يُخْلَدُ)([219])بالبناء للمفعول، مرفوعا على الاستئناف، و(يُخَلَّدْ)([220]) مبنيا للمفعول من خلَّد مضعف العين، مجزوما عطفا على الجواب، و(يُخَلَّدُ)([221])مبنيا للمفعول من خلَّد، مرفوعا على الاستئناف، و(تَخْلُدْ)([222])، بتاء الخطاب للكافر خاصة، وفيه التفات من الغيبة إلى الخطاب، لما في الخلود من قطع أمل الكافر في النجاة، من خلد الثلاثي مخفف العين، مبنيا للفاعل، مجزوما، و(تُخَلَّدْ)([223]) مبنيا للمفعول من خَلَّد مضعف العين، مجزوما و(تَخْلُدُ)([224])من خلد الثلاثي مخفف العين، مبنيا للفاعل، مرفوعا.

وهذه القراءات تدل على الوعيد بالخلود لمن فعل هذه الكبائر(الشرك والقتل والزنا)، فالخلود للمشرك خلود دائم، والخلود للقاتل والزاني والمرابي ونحوهم خلود مؤقت؛ لأنه قد دلت النصوص القرآنية والسنة النبوية أن جميع المؤمنين سيخرجون من النار، ولا يخلد فيها مؤمن، ولو فعل من المعاصي ما فعل، والعرب تطلق على الإقامة الطويلة خلود، من قولهم: "أقاموا فأخلدوا"، يعني طولوا الإقامة ومدوها، فهذا هو الحق عند أهل السنة والجماعة، فالقاتل إذا لم يستحل القتل، فهو عاص، أما إذا استحل القتل ورأى أن دماء المسلم حلال، فهذا كفر وردة عن الإسلام، وكذا من استحل الزنا، وقد قامت عليه الحجة فهذا يكون كافرًا ومرتدًا عن الإسلام.

ونص تعالى على هذه الثلاثة لأنها من أكبر الكبائر: فالشرك فيه فساد الأديان، والقتل فيه فساد الأبدان، والزنا فيه فساد الأعراض.

وفي قوله:(يُبَدِّل الله) من بدَّل مضعف العين، هكذا قرأ الجمهور، وقرئ: يُبْدِل([225]) من

السابقان.

([218]) قراءة شاذة، نسبت إلى أبي حيوة وقتادة والأعمش وأبي عمرو من طريق الجعفي وغيرهم، ينظر:السبعة٤٦٧، والبحر المحيط٥١٥/٦.

([219]) شاذة، نسبت إلى ابن عامر في رواية، وجبلة عن المفضل عن عاصم وحماد والأعمش، ينظر:مختصر ابن خالويه١٠٥، والبحر المحيط٥١٥/٦.

([220]) نسبت إلى أبي حيوة والجحدري وابن يعمر وأبي المتوكل، كما في مختصر ابن خالويه١٠٥، والكشاف٤١٦/٢.

([221]) شاذة، نسبت إلى الأعمش، كما في البحر المحيط٥١٥/٦، وروح المعاني٤٨/١٩، ٤٩.

([222]) نسبت إلى طلحة بن مصرف ومعاذ القارئ وأبو المتوكل وأبو نهيك وعامر الجحدري، ينظر:المحتسب١٢٥/٢.

([223]) نسبت إلى أبي حيوة وأبي عمرو في رواية شاذة، ينظر:روح المعاني٤٨/١٩.

([224]) نسبت إلى طلحة بن سليمان كما في المحتسب١٢٥/٢، والبحر المحيط٥١٥/٦.

([225]) هي شاذة، ونسبت إلى البرجمي(عبد الحميد بن صالح) عن أبي بكر عن عاصم، وابن أبي عبلة، ينظر:المحرر

أبدل.

فجمعت القراءتان معنيين لتبديل السيئات حسنات، فقد يكون بتحويل السيئات ذاتها إلى حسنات، أو بمحوها ووضع حسنات مكانها، وقد سبق أن هذا قد يكون في الدنيا بتبديل قبائح أعمالهم من الشرك وغيره إلى محاسن الأعمال في الإسلام، وقد يكون في الآخرة يوم عرضها في موقف القيامة.

والفرق بين الصيغتين يتجلى عند معرفة أصلهما، فالأَصل في التبديل تغيير الشيء عن حاله، والأَصل في الإبدال جعل شيء مكان شيء آخر، وقوله عز وجل: يوم تُبَدَّل الأَرْضُ غيرَ الأَرض والسمواتُ؛ قال الزجاج: تبديلها، والله أَعلم، تسييرُ جبالها وتفجير بِحارها وكونُها مستوية لا تَرى فيها عِوَجًا ولا أَمْتًا، وتبديل السموات انتثار كواكِبها وانفطارُها وانشقاقُها وتكوير شمسها وخسوف قمرها، وأَراد غيرَ السموات فاكتَفى بما تقدم.

أَبو العباس: ثعلب يقال أَبْدلت الخاتم بالحَلْقة إِذا نَحَّيت هذا وجعلت هذا مكانه.

وبدَّلت الخاتم بالحَلْقة إِذا أَذَبْتَه وسوَّيته حَلْقة.

وبدّلت الحَلْقة بالخاتم إِذا أَذبتها وجعلتها خاتمًا؛ قال أَبو العباس: وحقيقته أَن التبديل تغيير الصورة إِلى صورة أُخرى والجَوْهرةُ بعينها.

والإبدال: تَنْحيةُ الجوهرة واستئناف جوهرة أُخرى؛ ومنه قول أَبي النجم: عَزْل الأَمير للأَمير المُبْدَل أَلا ترى أَنه نَحَّى جسمًا وجعل مكانه جسمًا غيره؟، قال أَبو عمرو: فعرضت هذا على المبرد فاستحسنه وزاد فيه فقال:وقد جعلت العرب بدَّلت بمعنى أَبدلت، وهو قول الله عز وجل: (أُولئك يبدّل الله سَيِّئاتهم حسنات)؛ أَلا ترى أَنه قد أَزال السيئات وجعل مكانها حسنات(٢٢٦).

وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، والله ذو الفضل العظيم!

الموضع السابع عشر:

(وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ) (سبأ/١٧).

وقد ذكرها النووي (ت٦٧٦هـ)(٢٢٧) والزركشي (ت٧٩٤هـ) والسيوطي (ت٩١١هـ)،

الوجيز ١٧/١١، والكشاف٤١٦/٢.

(٢٢٦) ينظر:لسان العرب(بدل).

(٢٢٧) ينظر:قلائد المرجان٣٣١/١.

وغيرهم من جملة الأقوال في كونها أرجى آية[٢٢٨]

ووجه كونها أرجى آية أنها قصرت المجازاة بالعذاب على الكفور، فإن معنى الاستفهام هنا إنكاري بمعنى النفي، أي لا يكافأ بالعقوبة إلا الكفور، ويفهم منه نجاة الموحدين.

ومعنى الآية الكريمة: فكما بدلوا الشكر الحسن, بالكفر القبيح, بدلوا تلك النعمة بما ذكر, أي: وهل نجازي جزاء العقوبة، وهي المكافأة بالعدل لا بالفضل، إلا من كفر بالله وبطر النعمة؟

القراءات الواردة وأثرها في المعنى:

في قوله:(نجازي) بالنون والبناء للفاعل، قرأ بها حفص عن عاصم، وحمزة والكسائي ويعقوب وخلف في المتواتر[٢٢٩]، وهي تناسب قوله:(جزيناهم)، ومعنى المجازاة هنا المكافأة على كفرهم، لا كمجازاة المؤمين فإنهم يجزون بالفضل والإحسان، لا بالعدل والميزان.

وقرأ بها نافع وابن كثير وأبو عمرو وابن عامر وأبو بكر عن عاصم وأبو جعفر في المتواتر أيضا (يجَازَى)[٢٣٠]، بالياء، وبناء الفعل للمفعول، والكفور نائب فاعل، و التعبير بالغيبة في (يجازى) يتناسب وحالهم عقيب المجازاة؛ إذ أنهم صاروا ماضيا يُقَص على من جاء بعدهم ليعتبروا بهم، وأيضا ليكون أشبه بالمثل؛ فيشملهم ويشمل غيرهم.

وفي بناء الفعل للمفعول معنى لطيف؛ حيث إنه يشير إلى عدم رضاه سبحانه وتعالى هذه المكافأة لعباده، كما قال عز من قائل:(ولا يرضى لعباده الكفر) (الزمر/٧)، كما تشير إلى أنها ليست الأصل في المجازاة؛ إذ الأصل فيها في حق الله أن تكون بالفضل، فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم، وفي تحويل الفعل من المبني للمعلوم في (جزيناهم) إلى المبني للمفعول في(يجازَى) فتح لباب عظيم من الرجاء؛ إذ أن الخير كله منه سبحانه، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه.

وقرئ في الشواذ (يُجازِي)[٢٣١]بالياء، وبناء الفعل للفاعل، أي:لا يجازي الله إلا الكفورَ-بالنصب، جزاء عقوبة.

---

[٢٢٨] ينظر:البرهان٤٤٦/١، والإتقان ١٤٩/٤-١٥٣، وشرح الشفا٩٤/١.

[٢٢٩] هي قراءة سبعية، قرأ بها حفص عن عاصم، وحمزة والكسائي ويعقوب وخلف وأبو عبدالرحمن السلمي، ويحيى بن وثاب وقتادة وإبراهيم النخعي، ينظر:السبعة٥٢٩، والنشر٣٥٠/٢.

[٢٣٠] قرأ بها نافع وابن كثير وأبو عمرو وابن عامر وأبو بكر عن عاصم وأبو جعفر وابن محيصن واليزيدي والحسن، ينظر:البدور الزاهرة ٢٥٩، والمهذب١٥٣/٢.

[٢٣١] نسبت إلى قتادة وإبراهيم النخعي ويحيى بن وثاب، كما في المحتسب١٨٩/٢.

وقرئ أيضا (يَجْزِي)[٢٣٢] من جزى الثلاثي، مبنيا للفاعل، وهو بمعنى جازى؛ إذ المجازاة مفاعلة وهي تقتضي المعاملة بالمثل كما سبق، و(جزى) الثلاثي أكثر ورودا في الخير من (جازى)، وقد يأتي (جزى) في جزاء العقوبة قليلا، ومنه قوله تعالى:(وَمَن جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰ إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ)(الأنعام/١٦٠).

ومن ثم فقد أفادت هذه القراءات معاني واسعة للرجاء في رحمة الله لعباده الموحدين، حتى قال صاحب شرح الشفا:هي أرجى آية لأهل التوحيد[٢٣٣]

الموضع الثامن عشر:

(إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا)(فاطر/٦).

نسب القول في كونها أرجى آية إلى رابعة العدوية[٢٣٤] التي عللت ذلك بقولها:"إن الله تعالى يقول:(إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا)، كأنه يقول لنا: إنني حبيبكم فاتخذوني حبيبا.

وهذا معنى إشاري لطيف، ولا أراه بعيدا عن معنى الآية الكريمة، وسياقها، واستنباطه ممكن بمفهوم المخالفة[٢٣٥]، فقد حذرنا الله من عداوة الشيطان في كثير من الآيات، وذكرنا بإغوائه أبوينا قديما، ويمكن توضيحه كما يأتي:

وجه الرجاء فيها رحمة الله بعباده؛ حيث أطلعهم على إغواء الشيطان لأبويهم آدم حواء، حيث أخرجهما من الجنة، ثم أخبر ذريته بعداوة الشيطان لهم، وما يجب عليهم فعله حتى يتقوا شره ويقاوموه؛ إذ هو العدو اللدود، فلابد أن يتخذوه عدوا ولا يوالوه.

وفي داخل هذا المعنى إشارة إلى اتخاذ الله وحده وليا، لأن أول ما يتبادر إلى الذهن عند سماع الأمر الإلهي(فاتخذوه عدوا) هو سؤال:كيف أتخذه عدوا وهو يرانا هو وقبيله من حيث لا نراهم؟ والإجابة: كأنه يقول:اتخذوني وليا أكن لكم وليا ونصيرا.

ومن لوازم اتخاذه عدوًّا العملُ بخلاف ما يدعو إليه لتجنب مكائده ولمقته بالعمل الصالح[٢٣٦].

---

(٢٣٢) من دون نسبة في الدر المصون٥/٤٤١.

(٢٣٣) ينظر:شرح الشفاء، للملا نور الدين علي بن سلطان محمد الهروي القاري١/٩٤.

(٢٣٤) ينظر:مقال محمد محمد الأسطل بتاريخ٢٠١٢/١٠/٣١، على شبكة الألوكة.

(٢٣٥) مفهوم المخالفة: هو(ما يكون مدلولُ اللفظ في محل السكوت مخالفًا لمدلوله في محل النطق، ويسمَّى دليل الخطاب)، ينظرالأحكام للآمدي٣/٦٩.

(٢٣٦) ينظر:التحرير والتنوير٢٣/٢٦١.

وقال بعض العلماء: وتحت هذا الخطاب نوع لطيف من العتاب كأنه يقول: إنما عاديت إبليس من أجل أبيكم ومن أجلكم، فكيف يحسن بكم أن توالوه؟ بل اللائق بكم أن تعادوه وتخالفوه ولا تطاوعوه([٢٣٧]).

وكان الفضيل بن عياض يقول: يا كذاب يا مفتر، اتق الله ولا تسب الشيطان في العلانية وأنت صديقه في السر. وقال ابن السماك: يا عجبا لمن عصى المحسن بعد معرفته بإحسانه! وأطاع اللعين بعد معرفته بعداوته!([٢٣٨]).

وما سبق من أقوال العلماء تؤكد ما ذهبت إليه من اشتمال الآية الكريمة على التحذير من الشيطان والتنبيه على اتخاذه عدوا، والترغيب في الاحتماء بالمولى النصير.

الموضع التاسع عشر:

(وَبَشِّرْ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُمْ مِنْ اللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا) [الأحزاب:٤٧]

قَالَ ابْنُ عَطِيَّةَ: قَالَ لَنَا أَبِي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: هذه أرجى آية في كتاب الله عز وجل؛ لِأَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ قَدْ أَمَرَ نَبِيَّهُ أَنْ يُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عِنْدَهُ فَضْلًا كَبِيرًا، وَقَدْ بَيَّنَ تَعَالَى الْفَضْلَ الكبير في قوله تعالى: {وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي رَوْضَاتِ الْجَنَّاتِ لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الكَبِيرُ} [الشورى:٢٢] فَالْآيَةُ الَّتِي فِي هَذِهِ السُّورَةِ خَبَرٌ، وَالَّتِي فِي حم. عسق" تَفْسِيرٌ لَهَا.([٢٣٩])

ووجه الرجاء في الآية حاصل من الأمر ببشارة المؤمنين بعد وصف النبي ﷺ بكونه مبشرا في الآية السابقة، وتخصيصهم بذلك الفضل، وَكَوْنُهُ مِنَ اللَّهِ فهو كَبِيرٌ فَكَيْفَ إِذَا كَانَ مَعَ ذلك موصوفا بالكبر، ففيها زيادة بيان في فضل الله ومنته على المؤمنين، الذين يُشْرَع لهم على يدي هذا النبي، ما يؤول بهم إلى البشرى والفضل الكبير، وحسبهم أن ذلك الفضل الكبير (من الله) و(عند ربهم).

الموضع العشرون:

(ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ

([٢٣٧]) ينظر:تفسير ابن كثير ٥٣٣/٦.

([٢٣٨]) ينظر:تفسير القرطبي ٣٢٣/١٤.

([٢٣٩]) ينظر:المحرر الوجيز ٣٨٩/٤

الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ مِنْ فَضْلِهِ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ) [فاطر/ ٣٢-٣٥].

وذهب الشيخ الأمين الشنقيطي(٢٤٠)-رحمه الله-إلى أن هذه الآيات من أرجى آيات القرآن الكريم، حيث بَيَّنَ تَعَالَى فِي هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ أَنَّ إِيرَاثَ هَذِهِ الْأُمَّةِ لِهَذَا الْكِتَابِ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهَا فِي قَوْلِهِ:ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا وَبَيَّنَ أَنَّهُمْ ثَلَاثَةُ أَقْسَامٍ:

الْأَوَّلُ: الظَّالِمُ لِنَفْسِهِ وَهُوَ الَّذِي يُطِيعُ اللَّهَ، وَلَكِنَّهُ يَعْصِيهِ أَيْضًا فَهُوَ الَّذِي قَالَ اللَّهُ فِيهِ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا عَسَى اللَّهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ [التوبة/ ١٠٢].

وَالثَّانِي: الْمُقْتَصِدُ وَهُوَ الَّذِي يُطِيعُ اللَّهَ، وَلَا يَعْصِيهِ، وَلَكِنَّهُ لَا يَتَقَرَّبُ بِالنَّوَافِلِ مِنَ الطَّاعَاتِ.

وَالثَّالِثُ: السَّابِقُ بِالْخَيْرَاتِ: وَهُوَ الَّذِي يَأْتِي بِالْوَاجِبَاتِ وَيَجْتَنِبُ الْمُحَرَّمَاتِ وَيَتَقَرَّبُ إِلَى اللَّهِ بِالطَّاعَاتِ وَالْقُرُبَاتِ الَّتِي هِيَ غَيْرُ وَاجِبَةٍ، وَهَذَا عَلَى أَصَحِّ الْأَقْوَالِ فِي تَفْسِيرِ الظَّالِمِ لِنَفْسِهِ، وَالْمُقْتَصِدِ وَالسَّابِقِ، ثُمَّ إِنَّهُ تَعَالَى بَيَّنَ أَنَّ إِيرَاثَهُمُ الْكِتَابَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ مِنْهُ عَلَيْهِمْ، ثُمَّ وَعَدَ الْجَمِيعَ بِجَنَّاتِ عَدْنٍ وَهُوَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ فِي قَوْلِهِ: جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا إِلَى قَوْلِهِ: وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ وَالْوَاوُ فِي يَدْخُلُونَهَا شَامِلَةٌ لِلظَّالِمِ، وَالْمُقْتَصِدِ وَالسَّابِقِ عَلَى التَّحْقِيقِ، وَلِذَا قَالَ بَعْضُ أَهْلِ الْعِلْمِ: حُقَّ لِهَذِهِ الْوَاوِ أَنَّ تُكْتَبَ بِمَاءِ الْعَيْنَيْنِ، فَوَعْدُهُ الصَّادِقُ بِجَنَّاتِ عَدْنٍ لِجَمِيعِ أَقْسَامِ هَذِهِ الْأُمَّةِ، وَأَوَّلُهُمُ الظَّالِمُ لِنَفْسِهِ يَدُلُّ عَلَى أَنَّ هَذِهِ الْآيَةَ مِنْ أَرْجَى آيَاتِ الْقُرْآنِ، وَلَمْ يَبْقَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ أَحَدٌ خَارِجٌ عَنِ الْأَقْسَامِ الثَّلَاثَةِ، فَالْوَعْدُ الصَّادِقُ بِالْجَنَّةِ فِي الْآيَةِ شَامِلٌ لِجَمِيعِ الْمُسْلِمِينَ؛ وَلِذَا قَالَ بَعْدَهَا مُتَّصِلًا بِهَا (وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَى عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا كَذَلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ) إِلَى قَوْلِهِ: (فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ) [٣٥ \ ٣٦ - ٣٧].

وَاخْتَلَفَ أَهْلُ الْعِلْمِ فِي سَبَبِ تَقْدِيمِ الظَّالِمِ فِي الْوَعْدِ بِالْجَنَّةِ عَلَى الْمُقْتَصِدِ وَالسَّابِقِ، فَقَالَ بَعْضُهُمْ: قَدَّمَ الظَّالِمَ لِئَلَّا يَقْنُطَ، وَأَخَّرَ السَّابِقَ بِالْخَيْرِ لِئَلَّا يُعْجَبَ بِعَمَلِهِ فَيَحْبَطَ، وَقَالَ بَعْضُهُمْ: قَدَّمَ الظَّالِمَ لِنَفْسِهِ ; لِأَنَّ أَكْثَرَ أَهْلِ الْجَنَّةِ الظَّالِمُونَ لِأَنْفُسِهِمْ، لِأَنَّ الَّذِينَ لَمْ تَقَعْ مِنْهُمْ مَعْصِيَةٌ أَقَلُّ مِنْ غَيْرِهِمْ ; كَمَا قَالَ تَعَالَى: إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَا هُمْ [٣٨ \ ٢٤].

ووجه الرجاء في هذه الآية الكريمة سعة رحمة الله تعالى بجميع المسلمين على اختلاف درجاتهم، وإدخالهم الجنة.

(٢٤٠) ينظر:أضواء البيان ٢٨٤/٦، ٢٨٥، باختصار.

وفي التعبير بالاصطفاء، تنويه بفضل هؤلاء العباد، وإشارة إلى فضلهم على غيرهم، كما أن التعبير بالماضي يدل على تحقق هذا الاصطفاء.

ثم قسم- سبحانه- هؤلاء العباد إلى ثلاثة أقسام فقال: فَمِنْهُمْ ظالِمٌ لِنَفْسِهِ، وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ. وَمِنْهُمْ سابِقٌ بِالْخَيْراتِ بِإِذْنِ اللَّهِ...

وجمهور العلماء على أن هذه الأقسام الثلاثة، تعود إلى أفراد هذه الأمة الإسلامية.

وأن المراد بالظالم لنفسه، من زادت سيئاته على حسناته، والمقتصد: من تساوت حسناته مع سيئاته، والسابقين بالخيرات: من زادت حسناتهم على سيئاتهم، وعلى هذا يكون الضمير في قوله- تعالى- بعد ذلك: جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَها..

يعود إلى تلك الأقسام الثلاثة، لأنهم جميعا من أهل الجنة بفضل الله ورحمته(٢٤١).

القراءات الواردة وأثرها في المعنى:

في قوله:(سابق بالخيرات) هكذا عند الجمهور، وفي قراءة (سبَّاق)(٢٤٢) بوزن فعّال، صيغة مبالغة من السبق، فإذا كان السابق بالخيرات هو من سبق غيره في أداء الفرائض والنوافل مع تركه للمحرم والمكروه، فإن السباق هو الذي سبق كثيرا، وصورته أن يكون ديدنا له في حياته كلها، ولا سيما في نهايته، كقوله تعالى:(وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ)(آل عمران/١٠٢).

وفي قوله:(جناتُ عدن)، وهي قراءة الجمهور، بالرفع على الابتداء، وفي تقديمها تكريم لهم، كقوله:(وأزلفت الجنة للمتقين غير بعيد)(ق/٣١)، وإشعار بثبوتهم ودوامهم فيها؛ إذ الجملة الاسمية تدل على الثبوت والدوام، وقيل:بدل من "الفضل الكبير"، والأول أولى؛ لقراءة بعضهم:(جناتِ)(٢٤٣) بالنصب، على حد قولنا:زيدا ضربته، فنصبه على الاشتغال، أي:يدخلون جناتِ عدن يدخلونها(٢٤٤)، فدل ذلك على استقلال جملتها، وقوة دلالتها.

وقرئ:(جنةُ)(٢٤٥) على الإفراد، لأن "عدن" بمعنى إقامة، وهو وصف ثابت لجميع

---

(٢٤١) ينظر:التفسير الوسيط لطنطاوي٣٤٧/١١.

(٢٤٢) نسبت إلى أبي عمران الجوني وعمر بن أبي شجاع وأبي المتوكل وابن السميفع وأبي عمرو ويعقوب في رواية رويس والجحدري والقزاز عن أبي عمرو، ينظر:مختصر ابن خالويه١٢٤، والكشاف٥٧٨/٢.

(٢٤٣) هي قراءة شاذة، قرأ بها الجحدري وهارون عن عاصم، وكذا خلاد عن أبي بكر عنه وابن جبير عن حفص عنه، ينظر:مختصر ابن خالويه١٢٣، والبحر المحيط٣١٤/٧.

(٢٤٤) ينظر:مغني اللبيب٧٧٨.

(٢٤٥) هي قراءة شاذة، نسبت إلى زر بن حبيش، كما في الكشاف٥٧٨/٢، وتفسير القرطبي٣٥٠/١٤، والبحر المحيط٣١٤/٧

الجنات، وهو مناسب لما كانوا عليه في الدنيا من الإقامة على الإسلام، والقيام بحق وراثة الكتاب، فالجزاء من جنس العمل.

وفي قوله:(يَدْخُلُونها)، ببناء الفعل للفاعل، وهذا يدل على دخولهم وما أكرمهم الله به من قدرة على تحمل السعادة الأبدية؛ إذ لو أن أحدا منهم يموت من فرط السعادة لماتوا، وكون هذه الجملة خبرا عن (جنات) تعني إخبارهم بما يسعدهم قبل انتقالهم إليها، وهو من مظاهر حسن الظن بالله التي يبثها الرحمن في روع المؤمن قبل موته، كما أخبر النبي ﷺ بقوله:(لا يموتن أحدكم إلا وهو يحسن الظن بالله)([٢٤٦])، وقرأ أبو عمرو:يُدْخَلُونها، بالبناء للمفعول، وهما سبعيتان([٢٤٧]).

وهذه القراءة تتعاضد مع القراءة السابقة، ولا تتناقض معها؛ إذ أنهم يدخلون على ركائبهم، كما قال تعالى:(يوم نحشر المتقين إلى الرحمن وفدا)أي:ركبانا، أو أن دخول الجنة محض كرم وفضل من الله تعالى، و تفاوت الدرجات فيها بتفاوت الأعمال.

وفي قوله:(يُحَلَّون) هكذا عند الجمهور، والمعنى يُلبسون (أي:يلبسهم أحد من الملائكة أو من غيرهم) في أيديهم أساور من ذهب كما قال النبي ﷺ في الحديث: " تبلغ الحلية من المؤمن حيث يبلغ الوضوء "([٢٤٨]) وقال كعب الأحبار: "إن في الجنة ملكا لو شئت أن أسميه لسميته، يصوغ لأهل الجنة الحلي منذ خلقه الله إلى يوم القيامة، لو أُبرِز قُلْبٌ (بضم القاف وسكون اللام) منها- أي: سوار منها- لرد شعاع الشمس، كما ترد الشمس نور القمر"([٢٤٩]).

قرئ:يَحْلَون([٢٥٠])، من حَليت المرأة فهي حالية، إذا لبست الحلي، وهي تشير إلى كمال النعيم وعظمته، و تقلبهم فيما يحبونه ويرغبونه، بحيث يختارون ما يشاءون من الحلي ويلبسونه من دون حد أو قيد، كما قال سبحانه: (لهم ما يشاءون فيها) (ق/٣٥) وقوله: (وفيها ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين) (الزخرف/٧١).

وفي قوله:(أساور) جمع أسورة، جمع سوار، فهو جمع الجمع، وهو يشير إلى التكثير غير المعهود في الدنيا، ولذا جيء ب"من" لتأكيد لبسهم للأساور؛ إذ أنه مثير للعجب.

([٢٤٦]) رواه مسلم برقم (٢٨٧٧).من حديث جابر بن عبد الله الأنصاري.

([٢٤٧]) قرأ (يُدْخلونها) بالبناء للمفعول أبو عمرو، وابن كثير في رواية، ينظر:السبعة ٥٣٤، والنشر٢/٢٥٢.

([٢٤٨]) رواه مسلم في صحيحه، برقم٣٧٣.

([٢٤٩]) ينظر:تفسير ابن كثير٦/٤٨٧..

([٢٥٠]) ينظر:البحر المحيط٧/٣١٤.

قرئ:أساوير([٢٥١])، واحدها إسوار، وهي لغة في السوار، ونسب هذا القول إلى أَبي عمرو بن العلاء؛ قال: ولم ينفرد أَبو عمرو بهذا القول، وشاهده قول الأَحوص:

غادَةٌ تَغْرِثُ الوِشــــاحَ ولا يَغْرَثُ منها الخَلْخَالُ والإِسْوَارُ([٢٥٢])

وفي قوله:(ولؤلؤا) بالنصب([٢٥٣])، أي: ويحلون لؤلؤا، أو على محل "من ذهب"لأنه في موضع المفعول، وقرئ في السبعة أيضا:ولؤلؤٍ بالخفض عطفا على أساور([٢٥٤]).

ونقل القرطبي([٢٥٥])، ومن جاءوا بعده عن القشيري قوله: والمراد ترصيع السوار باللؤلؤ؛ ولا يبعد أن يكون في الجنة سوار من لؤلؤ مصمت.

ثم علق القرطبي قائلا: وهو ظاهر القرآن بل نصه، وقال ابن الأنباري: من قرأ (ولؤلؤ) بالخفض وقف عليه ولم يقف على الذهب. وقال السجستاني: من نصب اللؤلؤ فالوقف الكافي([٢٥٦])من ذهب؛ لأن المعنى ويحلون لؤلؤا، قال ابن الأنباري: وليس كما قال، لأنا إذا خفضنا (اللؤلؤ) نسقناه على لفظ الأساور، وإذا نصبناه نسقناه على تأويل الأساور، وكأنا قلنا: يحلون فيها أساور ولؤلؤا، فهو في النصب بمنزلته في الخفض، فلا معنى لقطعه من الأول([٢٥٧]).

والفرق هنا بين رأيي السجستاني وابن الأنباري، أن الأول يرى أن الوقف الكافي على "من ذهب" في حال قراءة"لؤلؤا"بالنصب، ويفهم من كلامه أننا لا نقف على "من ذهب" في حال قراءة "لؤلؤ"بالخفض، بل نصله بالعطف عليه بالواو، و ابن الأنباري يرى الوصل في الحالين،

في حال الخفض، ولا خلاف فيه، وفي حال النصب لعطفه على تأويل (أساور)، ويحتمل هذا-على رأيه- زيادة "من"، وهو ضعيف؛ لأن ماقبلها موجب، كما يحتمل العطف على محل

([٢٥١]) نسبت إلى أبيّ، ينظر:إعراب النحاس٦٩٨/٢، والمحرر الوجيز٢٥٢/١٢.

([٢٥٢]) ينظر:لسان العرب(سور)٣٨٧/٤.

([٢٥٣]) قرأ بها نافع وعاصم في روايتيه، ووأبو جعفر والحسن والجحدري والأعرج وعيسى بن عمر وسلام ويعقوب، ينظر:السبعة ٥٣٥، والنشر٣٢٦/٢.

([٢٥٤]) قرأ بها ابن كثير وأبو عمرو وابن عامر وحمزة والكسائي وطلحة وابن وثاب والأعمش وورش والحسن والمفضل عن عاصم، ينظر:المرجعان السابقان.

([٢٥٥]) ينظر:تفسير القرطبي، وليس في لطائف الإشارات، ولعله في كتابه التيسير في علم التفسير، ولم أقف إلا على الجزء الأول منه.

([٢٥٦]) الوقف على كلام تم معناه وتعلق بما بعده معنى لا لفظًا.

([٢٥٧]) ينظر:تفسير القرطبي٣٤٦/١٤.

"من أساور"، والدليل تأويله بقوله:يحلون فيها أساور ولؤلؤا، ثم لا يري فرقا بين النصب والخفض.

وأميل إلى رأي السجستاني؛ للتفرقة بين المعنيين، ولأن الوقف الكافي لا يتعارض مع تعلقه معنى بما قبله، أما إذا قيل:يحلون فيها أساور ولؤلؤا، فيلزم منه أن اللؤلؤ ليس بأساور؛ لأن العطف يقتضي المغايرة، وقد ذُكِر بعده اللباس، فقال:(ولباسُهم) فَفُهِم أن ماقبله متعلقٌ بالأساور.

وأرى أن قراءة الخفض رافعة للخلاف؛ إذ أنها بعطفها على "ذهب" قطعت في ثبوت تحليهم بأساورمن الذهب واللؤلؤ، فأما الأساور الذهبية فقد رأيناها، وأما الأخرى فقد سمعنا عنها في كتاب ربنا فآمنا به، ونسأل الله أن يحلينا بها!

ولما كانت الأساورُ اللؤلؤيةُ الخالصةُ غيرَ معهودةٍ في الدنيا جِيء بها منصوبةً في القراءة الأخرى، لِلَفْت الانتباه إلى ذلكم النعيم الذي لم يخطر على قلب بشر، ولم تُنْسَق بالواو على سابقتها؛ لئلا تدخل في حيز "من"البيانية، بل تستدعي التدبر للرجوع إلى تصور العامل "يحلون"مع المعمول(لؤلوا)، والتسليم بالعجز عن الإدراك إدراك.

وفي قوله:(ولباسُهم) بالرفع على الابتداء، قراءة الجمهور، قال الآلوسى: وقوله- تعالى-: وَلِباسُهُمْ فِيها حَرِيرٌ غير الأسلوب حيث لم يقل ويلبسون فيها حريرا، للإيذان بأن ثبوت اللباس لهم أمر محقق غنى عن البيان.(٢٥٨)

وقرئ: ولباسَهم(٢٥٩) بالنصب، أي:يلبسون لباسَهم، فتكون متناسقة مع الجملة قبلها في (يحلون)، ولها معنى التجدد في اللباس، وهو متفق مع صريح القرآن في تجدد النعيم، من مأكل ومشرب وملبس وغير ذلك.

وبعد، فهذه القراءات يأخذ بعضها بعناق بعض، لإثبات ما في الآية الكريمة من عظيم الرجاء، وسعة رحمة الله تعالى، وما أعده لعباده المؤمنين، على تفاوت درجاتهم، واختلاف أعمالهم، فمنهم الظالم لنفسه، ومنهم المقتصد، ومنهم السابق بالخيرات بإذن الله، جعلنا الله وإياكم من السابقين إلى الخيرات بالخيرات!

الموضع الحادي والعشرون:

(قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ

---

(٢٥٨) ينظر:روح المعاني ٣٦٨/١١.

(٢٥٩) هي قراءة شاذة كما في مشكل إعراب القرآن لمكي٢١٧/٢، وإعراب القراءات الشواذ للعكبري٣٥٠/٢.

جَمِيعًا ۚ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ)(الزمر/٥٣).

ذكره الزركشي والسيوطي وغيرهما(٢٦٠)، وجاء ذلك عن عدد من الصحابة؛ منهم: عبدالله بن مسعود، وعبدالله بن عمر رضي الله عنهما، وجاء عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أنه قال: ما في القرآن آية أعظم فرحًا من هذه الآية.

وَقَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عنه: قَرَأْتُ الْقُرْآنَ مِنْ أَوَّلِهِ إِلَى آخِرِهِ فَلَمْ أَرَ آيَةً أَحْسَنَ وَأَرْجَى مِنْ هذه الآية.

والذين ذهبوا إلى أن هذه الآية هي أرجى آية لعصاة المؤمنين استدلوا بما ثبت في الصحيحين عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: (إن ناسًا من المشركين قتلوا فأكثروا، وزنوا فأكثروا، ثم أتوا رسول الله ﷺ فقالوا: إن الذي تقول وتدعو إليه لحسن، لو تخبرنا أن لما عملنا كفارة، فنزلت: (وَالَّذِينَ لا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ) [الفرقان:٦٨] إلى قوله: {غَفُورًا رَحِيمًا} [الفرقان:٧٠]، ونزل أيضًا: {قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا} [الزمر:٥٣])

وروى الطبراني بإسناد ضعيف عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: (بعث رسول الله ﷺ إلى وحشي قاتل حمزة رضي الله عنه يدعوه إلى الإسلام، فقال: كيف تدعوني وأنت تزعم أن من قتل أو زنى أو أشرك يلق أثامًا، ويضاعف له العذاب يوم القيامة ويخلد فيه مهانًا، وأنا صنعت ذلك؟! فهل تجد لي من رخصة؟ فأنزل الله عز وجل: إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُوْلَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ [الفرقان:٧٠] إلى آخر الآية، فقال وحشي: هذا شرط شديد، (إلا من تاب وآمن وعمل عملًا صالحًا) فلعلي لا أقدر على هذا، فأنزل الله تعالى: إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ [النساء:٤٨] فقال وحشي: هذا أرى بعده مشيئة، فما أدري أيغفر لي أم لا؟ فهل غير هذا؟ فأنزل الله تعالى: قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا [الزمر:٥٣] قال وحشي: هذا نعم فأسلم)(٢٦١).

قال ابن كثير: " هذه الآية الكريمة دعوة لجميع العصاة من الكفرة وغيرهم إلى التوبة والإنابة، وإخبار بأن الله- تبارك وتعالى- يغفر الذنوب جميعًا لمن تاب منها ورجع عنها، وإن كانت مهما كانت، وإن كثرت وكانت مثل زبد البحر، ولا يصح حمل هذه على غير توبة؛

---

(٢٦٠) ينظر:البرهان ٤٤٧/١، والإتقان١٤٩/٤.

(٢٦١) رواه الطبراني في الكبير ١٩٧/١١.

لأن الشرك لا يغفر لمن لم يتب منه"(٢٦٢)

وروي عن ثوبان أن رسول الله ﷺ قال: «ما أحب أن لي الدنيا وما فيها بهذه الآية: {قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ}"(٢٦٣).

(ما أحب أن لي الدنيا وما فيها بهذه الآية) أي عوضا بها فالباء للعوض. {يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ...} [الزمر: ٥٣] إلى آخر الآية) تمامه فقال رجل: ومن أشرك؟ فسكت، ثم قال: ومن أشرك؟ ثلاث مرات. قال ابن حجر: استدل بالآية على غفران جميع الذنوب ولو كبائر تعلقت بحق الحق أو آدمي والمشهور عند أهل السنة أن الذنوب تغفر كلها بالتوبة وبدونها لمن يشاء الله تعالى لكن حق الآدمي لا بد من رده لصاحبه أو محاللته وهي أرجى آية في القرآن على الأصح من أقاويل كثيرة، وقال ابن تيمية: هذه الآية في من تاب بدليل قوله عقيبها: {وَأَنِيبُوا إِلَى رَبِّكُمْ...} الآية. [الزمر: ٥٤] وآية: {إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ} [النساء: ٤٨] في غير التائب ولذا قيد بالمشيئة.

يقول العلامة الشوكاني- رحمه الله-: "واعلم أن هذه الآية أرجى آية في كتاب الله- سبحانه- لاشتمالها على أعظم بشارة؛ فإنه:

أولًا: أضاف العباد إلى نفسه؛ لقصد تشريفهم، ومزيد تبشيرهم.

ثانيًا:ثم وصفهم بالإسراف في المعاصي، والاستكثار من الذنوب.

ثالثًا:ثم عقب ذلك بالنهي عن القنوط من الرحمة لهؤلاء المستكثرين من الذنوب؛ فالنهي عن القنوط للمذنبين غير المسرفين من باب الأولى، وبفحوى الخطاب.

رابعًا: ثم جاء بما لا يبقى بعده شك، ولا يتخالج القلب عند سماعه ظن، فقال: ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ ﴾ فالألف واللام قد صيرت الجمع الذي دخلت عليه للجنس الذي يستلزم استغراق أفراده، فهو في قوة: إن الله يغفر كل ذنب كائنًا ما كان، إلا ما أخرجه النص القرآني، وهو الشرك: ﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ ما دُونَ ذلِكَ لِمَنْ يَشاءُ ﴾ [النساء: ٤٨].

خامسًا: ثم لم يكتف بما أخبر عباده به من مغفرة كل ذنب، بل أكد ذلك بقوله: ﴿ جَمِيعًا ﴾.

---

(٢٦٢) تفسير القرآن العظيم (٧١/٤). وانظر: تفسير الرازي (٣/٢٧)، والقاسمي في محاسن التأويل، وغيرها، وقال العلامة العثيمين: "فهذه الآية أجمع العلماء على أنها في التائبين"؛ الشرح الممتع على زاد المستقنع (٤٥٧/١٤).

(٢٦٣) التنوير شرح الجامع الصغير ٣٣٠/٩

فيا لها من بشارة ترتاح لها قلوب المؤمنين المحسنين ظنهم بربهم، الصادقين في رجائه، الخالعين لثياب القنوط، الرافضين لسوء الظن بمن لا يتعاظمه ذنب، ولا يبخل بمغفرته ورحمته على عباده، المتوجهين إليه في طلب العفو، الملتجئين به في مغفرة ذنوبهم.

وما أحسن ما علل سبحانه به هذا الكلام قائلًا: ﴿ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾أي: كثير المغفرة والرحمة، عظيمهما بليغهما واسعهما.

فمن أبى هذا التفضل العظيم والعطاء الجسيم، وظن أن تقنيط عباد الله وتأييسهم من رحمته، أولى بهم مما بشرهم الله به، فقد ركب أعظم الشطط، وغلط أقبح الغلط؛ فإن التبشير وعدم التقنيط الذي جاءت به مواعيد الله في كتابه العزيز، والمسلك الذي سلكه رسوله- صلى الله عليه وآله وسلم- كما صح عنه من قوله: (يسروا ولا تعسروا، وبشروا ولا تنفروا)([٢٦٤]).

وقد اشتملت هذه الآية على معان عظيمة في الرجاء، والنظر إلى سعة رحمة الله تعالى وذكر بعض المفسرين في الآية سبعة عشر أمرًا كلها تؤكد سعة رحمة الله سبحانه وتعالى، وعظيم فضله وإنعامه، وتلك المؤكدات هي:

- الأول: نداؤهم بعنوان العبودية فإنها تقتضي المذلة، واقتضاؤها للترحم ظاهر.

ما أرحم الله بنا! على إسرافنا فيما لا يحب، ينادينا بما نحب!

- الثاني: الاختصاص الذي تشعر به الإضافة إلى ضميره- تعالى- فإن السيد من شأنه أن يرحم عبده ويشفق عليه.

- الثالث: تخصيص ضرر الإسراف المشعر به {عَلَى أَنْفُسِهِمْ} فكأنه قيل: ضرر الذنوب عائد عليهم لا علي، يكفي ذلك من غير ضرر آخر.

- الرابع: النهي عن القنوط مطلقًا عن الرحمة، فضلًا عن المغفرة وإطلاقها.

- الخامس: إضافة الرحمة إلى الاسم الجليل المحتوي على جميع معاني الأسماء على طريق الالتفات فإن ذلك ظاهر في سعتها.

- السادس: التعليل بقوله:{إِنَّ اللَّهَ} إلخ فإن التعليل يحسن مع الاستبعاد وترك القنوط من الرحمة.

- السابع: وضع الاسم الجليل فيه موضع الضمير لإشعاره بأن المغفرة من مقتضيات ذاته.

([٢٦٤]) ينظر:فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير(٥٨٢/٤-٥٨١)بتصرف يسير.

- **الثامن**: تعريف الذنوب فإنه في مقام التمدح ظاهر في الاستغراق.

- **التاسع**: التأكيد بالجميع، **والعاشر**: التعليل بأنه {هُوَ}... إلخ.

- **الحادي عشر**: التعبير بالغفور فإنه صيغة مبالغة.

- **الثاني عشر**: حذف معمول {الْغَفُورُ} فإن حذف المعمول يفيد العموم.

- **الثالث عشر**: إفادة الجملة الحصر فإن من المعلوم أن الغفران قد يوصف به غيره- تعالى-، فالمحصور فيه سبحانه- إنما هو الكامل العظيم، **والرابع عشر**: المبالغة في ذلك الحصر.

- **الخامس عشر**: الوعد بالرحمة بعد المغفرة فإنه مشعر بأن العبد غير مستحق للمغفرة لولا رحمته، **و السادس عشر**: التعبير بصيغة المبالغة فيها، **والسابع عشر**: إطلاقها([٢٦٥]).

آيتان ظاهرهما التعارض والجمع بينهما:

الجمع بين هذه الآية، وقوله: ﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ ما دُونَ ذلِكَ لِمَنْ يَشاءُ ﴾ (النساء: ٤٨).

هو: أن كل ذنب كائنًا ما كان- ما عدا الشرك بالله- مغفور لمن شاء الله أن يغفر له، على أنه يمكن أن يقال: إن إخباره لنا بأنه يغفر الذنوب جميعًا، يدل على أنه يشاء غفرانها جميعًا؛ وذلك يستلزم أنه يشاء المغفرة لكل المذنبين من المسلمين، فلم يبق بين الآيتين تعارض من هذا الوجه.

أما ما يزعمه جماعة من المفسرين: من تقييد هذه الآية بالتوبة، وأنها لا تغفر إلا ذنوب التائبين؛ وزعموا أنهم قالوا ذلك للجمع بين الآيات، فهو جمع بين الضب والنون، وبين الملاح والحادي...، ولو كانت هذه البشارة العظيمة مقيدة بالتوبة لم يكن لها كثير موقع؛ فإن التوبة من المشرك يغفر الله له بها ما فعله من الشرك بإجماع المسلمين.

وقد قال- عز وجل-: ﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ ما دُونَ ذلِكَ لِمَنْ يَشاءُ ﴾ [النساء: ٤٨]. فلو كانت التوبة قيدًا في المغفرة لم يكن للتنصيص على الشرك فائدة.

وقد قال سبحانه: ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ ﴾ [الرعد:٦].

قال الواحدي: المفسرون كلهم قالوا: إن هذه الآية في قوم خافوا إن أسلموا أن لا يغفر لهم ما جنوا من الذنوب العظام، كالشرك، وقتل النفس، ومعاداة النبي- صلى الله عليه وآله وسلم.

([٢٦٥]) ينظر:مجلة البحوث الإسلامية، العدد٨٩، ص ١٨٩-١٨٤، سنة١٤٣١ه، بتصرف.

قال الشوكاني: هب أنها في هؤلاء القوم فكان ماذا؟

فإن الاعتبار بما اشتملت عليه من العموم لا بخصوص السبب، كما هو متفق عليه بين أهل العلم، ولو كانت الآيات القرآنية، والأحاديث النبوية مقيدة بأسبابها غير متجاوزة لها، لارتفعت أكثر التكاليف عن الأمة، إن لم ترتفع كلها. واللازم باطل بالإجماع، فالملزوم مثله.

وفي السنة المطهرة من الأحاديث الثابتة في الصحيحين وغيرهما- في هذا الباب- ما إن عرفه المطلع عليه، حق معرفته، وقدره حق قدره، علم صحة ما ذكرناه، وعرف حقيقة ما حررناه"(٢٦٦)

وقال ابن القيم: "فإن قيل: فإذا كان الشرك وغيره مما تأتي عليه التوبة، فما وجه الفرق بين الشرك وما دونه؟ وهل هما في حق التائب أم غير التائب؟ أم أحدهما: في حق التائب، والآخر: في حق غيره؟ وما الفرق بين هذه الآية- وهي: ﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ ما دُونَ ذلِكَ لِمَنْ يَشاءُ ﴾ [النساء: ٤٨]- وبين قوله: ﴿ قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾ [الزمر: ٥٣]؟!

فالجواب: أن كل واحدة من الآيتين لطائفة، فآية النساء: ﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ ما دُونَ ذلِكَ لِمَنْ يَشاءُ ﴾، هي لغير التائبين في القسمين، والدليل عليه: أنه فرق بين الشرك وغيره في المغفرة، ومن المعلوم بالاضطرار من دين الإسلام: أن الشرك يغفر بالتوبة، وإلا لم يصحَّ إسلام كافر أبدًا- وأيضًا- فإنه خصص مغفرة ما دون الشرك بمن يشاء، ومغفرة الذنوب للتائبين عامة لا تخصيص فيها، فخصص وقيد وهذا يدل على أنه حكم غير التائب. وأما آية الزمر: ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا ﴾، فهي في حق التائب؛ لأنه أطلق وعمم فلم يخصها بأحد، ولم يقيدها بذنب، ومن المعلوم بالضرورة: أن الكفر لا يغفره، وكثير من الذنوب لا يغفرها، فعلم أن هذا الإطلاق والتعميم في حق التائب، فكل من تاب من أي ذنب كان، غفر له"(٢٦٧)

و قال ابن تيمية: "الصواب الذي عليه أئمة المسلمين أن كل من تاب، تاب الله عليه، كما قال الله تعالى: ﴿ قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾ [الزمر: ٥٣]. فقد ذكر في هذه الآية: أنه يغفر للتائب الذنوب جميعًا ولهذا أطلق وعمم. وقال في الآية الأخرى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ

---

(٢٦٦) ينظر:فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير(٥٨٢/٤-٥٨١)باختصار.

(٢٦٧) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين (٣٢٥/١).

وَيَغْفِرُ ما دُونَ ذلِكَ لِمَنْ يَشاءُ ﴾ [النساء: ٤٨]. فهذا في غير التائب؛ ولهذا قيد وخصص"([٢٦٨]).

وهذه الآية الكريمة التي نظر الله عز وجل فيها إلى أمم غرقت في ذنوبها، وقلوب أسرفت في غيها وفجورها، وإلى أمم تعيش في الظلمات، وقلوب حائرة في السقاطات والجهالات، إلى تلك الجموع التي هوت وضلت عن سبيل الله وغوت، إلى قلوب طالما فرت عن ربها، وأفئدة طالت غربتها عن خالقها، نظر الله إليها نظر الرحمة؛ لكي يناديها بهذا النداء، فنسبها إليه جل وعلا: (قُلْ يَا عِبَادِي) ومن لهم سواه؟! ومن يرجون غيره؟! حينما عظم من النفس إساءتها، وجلَّ منها خطيئتها ووزرها، نظرت إلى اليمين والشمال ومن فوقها ومن تحتها ومن أمامها وخلفها، فعلمت عندها أن لا مفر من الله إلا إليه.

عندها أقبلت على الله جل وعلا، والقلوب محترقة بالحزن والألم، والنفوس متوهجة من شديد العتب والندم، تحس أنه ما كان ينبغي ما فات وسودت به الصحائف، تحس أنه لا غنى لها عن ربها، وأنها قد أسرفت في فجورها وغيها، وأنه إذا لم تصب برحمة من فاطرها فالويل ثم الويل لها، فعندها أحست من صميم القلب والفؤاد أن النجاة هناك، وأن المفر إلى هناك، إلى الله، وجلَّ الله!...لا يجوز لمسلم بعد هذه الآية الكريمة إذا وقع منه أي ذنب كان أن يستعظمه على الله جل وعلا، ولو قتل ولو زنا ولو سرق ولو فعل الموبقات، ولو ارتكب كبائر الفواحش والمنكرات فليضع نصب عينيه {إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ} [الزمر:٥٣].

حمل عمر بن الخطاب السيف لكي يقتل النبي ﷺ، فقلب الله قلبه في لحظة واحدة لكي يكون إمامًا ورحمةً للمسلمين، فما أوسع رحمة الله بعباده! وما أوسع حلم الله على خلقه! نعصيه على أرض هي بساطه، وخيرات هي نعماؤه وآلاؤه، جل شأنه وتقدست أسماؤه([٢٦٩]).

القراءات الواردة وأثرها في المعنى:

في قوله:(إن الله يغفر الذنوب جميعا) قرئ([٢٧٠]) في الشواذ: (إن الله يغفر الذنوب جميعا ولا يبالي).

وقرئ: (ولا يبالي إنه هو الغفور الرحيم)([٢٧١])

([٢٦٨]) الفتاوى الكبرى (١٢٨/٥) لابن تيمية، وانظر: مدارج السالكين (٣٩٤/١) لابن قيم الجوزية.

([٢٦٩]) من محاضرة للشيخ محمد مختار الشنقيطي(المدرس بالحرم النبوي الشريف) باختصار.

([٢٧٠]) قرأ بها: فاطمة وأسماء وشهر بن حوشب وحماد بن سلمة، كما في مختصر بن خالويه ١٣٢، وإعراب القرآن للنحاس٤٢١/٢، والكشاف ٣٦/٣.

([٢٧١]) إحياء علوم الدين، والحديث أخرجه الترمذي من حديث أسماء بنت يزيد وقال حسن غريب.

وهذه القراءة على التفسير كما ذكر النحاس(٢٧٢)، و فيها زيادة تأكيد لفضل الله تعالى العظيم على عباده، في مغفرة جميع الذنوب، وقوله:ولا يبالي، فسرها العلماء بما يليق يالذات العلية فقالوا: أي: لا يعظم عليَّ كثرتها، وقال الطيبي في قوله: ((ولا أبالي)): أي لا يسأل عما يفعل(٢٧٣).

وأصله من بالى بالأمر:أي اكترث له، واهتم به، مشتقة من البال وهو الحال والشأن، ولا تكاد تستعمل إلا مع النفي، يقال:لا أبالي، ولا يبالي، أي:لا يهتم، ولا يكترث، وهذا خليق بالبشر.

ولذلك فإن كثيرا من العلماء ذكروا لازم المعنى على ما يليق به سبحانه وتعالى.

كما صح عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله- ﷺ- يقول: قال الله تبارك وتعالى: (يا ابن آدم إنك ما دعوتني ورجوتني غفرت لك على ما كان فيك ولا أبالي، يا ابن آدم لو بلغت ذنوبك عنان السماء ثم استغفرتني غفرت لك ولا أبالي، يا ابن آدم إنك لو أتيتني بقراب الأرض خطايا ثم لقيتني لا تشرك بي شيئا لأتيتك بقرابها مغفرة)(٢٧٤).

الموضع الثاني والعشرون:

قوله: (غَافِرِ الذَّنبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ)(غافر/٣).

والمعنى: يغفر ما سلف من الذنب، ويقبل التوبة في المستقبل لمن تاب إليه وخضع لديه(٢٧٥).

قال ابن عباس: غافر الذنب لمن قال لا إله إلا الله، وقابل التوب ممن قال لا إله إلا الله (شديد العقاب) لمن لا يقول لا إله إلا الله، (ذي الطول) ذي الغنى عمن لا يقول لا إله إلا الله(٢٧٦).

قال عمر رضي الله تعالى عنه: قرأت القرآن كله من أوله إلى آخره فلم أر آية أعظم وأرجى من قول الله جل وعلا: بسم الله الرحمن الرحيم: {حم * تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ * غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ} [غافر:١- ٣]، قال: فقدم غفران الذنب على قبول

---

(٢٧٢) إعراب القرآن للنحاس٢/٤٢٨.

(٢٧٣) شرح الأربعين النووية لابن دقيق العيد (١٣١)، و شرح الأربعين النووية لابن العطار (١٩٢).

(٢٧٤) رواه الترمذي في الجامع برقم٣٤٩١.

(٢٧٥) ينظر:تفسير ابن كثير٧/١٥٠.

(٢٧٦) ينظر:تفسير البغوي٧/١٣٦.

التوبة[٢٧٧].

ويبدو أن هذه الآية الكريمة كان لها أبلغ الأثر في قلب عمر-رضي الله عنه- حتى تعلق بها في كثير من حياته، قال القرطبي: روى عن عمر بن الخطاب- رضى عنه- أنه افتقد رجلا ذا بأس شديد من أهل الشام فلما سأل عنه قيل له: تتابع في هذا الشراب.

فقال عمر لكاتبه: اكتب من عمر بن الخطاب إلى فلان، سلام عليك، وأنا أحمد الله إليك الذي لا إله إلا هو بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ، حم تَنْزِيلُ الْكِتابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ إلى قوله- تعالى-: إِلَيْهِ الْمَصِيرُ.

ثم ختم الكتاب وقال لرسوله: لا تدفعه إليه حتى تجده صاحيا، ثم أمر من عنده بالدعاء له بالتوبة. فلما وصل الكتاب إلى الرجل جعل يقرؤه ويقول: قد وعدني الله أن يغفر لي، وحذرني عقابه، فلم يبرح يرددها حتى بكى، ثم نزع، فأحسن النزع وحسنت توبته.

فلما بلغ عمر ذلك قال: هكذا فاصنعوا، إذا رأيتم أحدكم قد زل زلته، فسددوه وادعوا الله له أن يتوب عليه، ولا تكونوا أعوانا للشيطان عليه[٢٧٨].

وبالنظر إلى المعنى السياقي للآية الكريمة نلحظ أنها جمعت بين الخوف والرجاء، فجاء بعدها قوله: (شديد العقاب)، كقوله تعالى:(نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ. وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ)(الحجر/٤٩، ٥٠)، ولكنها لا تخلو من عظيم الرجاء؛ إذ أن تقديم المغفرة وقبول التوبة على وصف الشدة والعقاب.

قال صاحب الكشاف: ما بال الواو في قوله وَقابِلِ التَّوْبِ؟

قلت (والكلام للزمخشري): فيها نكتة جليلة، وهي إفادة الجمع للمذنب التائب بين رحمتين: بين أن يقبل توبته فيكتبها له طاعة من الطاعات، وأن يجعلها محاءة للذنوب، كأنه لم يذنب، كأنه قال: جامع المغفرة والقبول[٢٧٩].

وقد شرح ذلك ابن عاشور بقوله:

وإنما عطفت صفة {وقَابِل التَّوْب} بالواو على صفة {غَافِر الذنب} ولم تُفْصَل كما فُصِلت صفتا {العليمِ}، و {غافرِ الذنب} وصفة {شديد العقاب} إشارة إلى نكتة جليلة وهي إفادة أن يجمَع للمذنب التائب بين رحمتين، بين أن يقبل توبته فيجعلها له طاعة، وبين أن يمحو عنه

(٢٧٧) ينظر:تفسير القرطبي١٠/٣٢٢.

(٢٧٨) المرجع السابق.

(٢٧٩) ينظر:الكشاف٤/١٤٩.

بها الذنوب التي تاب منها وندِم على فعلها، فيصبحَ كأنه لم يفعلها، وهذا فضل من الله([٢٨٠]).

الموضع الثالث والعشرون:

(الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ. رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدتَّهُمْ وَمَن صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ. وَقِهِمُ السَّيِّئَاتِ ۚ وَمَن تَقِ السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ)(غافر/٧، ٨، ٩).

ذكر القرطبي: وقال يحيى بن معاذ الرازي لأصحابه في هذه الآية: افهموها؛ فما في العالم جنة أرجى منها، إن ملكا واحدا لو سأل الله أن يغفر لجميع المؤمنين لغفر لهم، كيف وجميع الملائكة وحملة العرش يستغفرون للمؤمنين؟

وقال خلف بن هشام البزار القارئ: كنت أقرأ على سليم بن عيسى فلما بلغت: ويستغفرون للذين آمنوا بكى ثم قال: يا خلف ما أكرم المؤمن على الله، نائما على فراشه والملائكة يستغفرون له.([٢٨١])

فالملائكة عباد مكرمون، لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون، فهم مطبوعون على السمع والطاعة المطلقة لله تعالى، ومن ثَمّ كان دعاؤهم أقرب للإجابة.

وذكرها الزحيلي في تفسيره، وقال إنها أرجى آية([٢٨٢]).

قلت:ولعله أحد الأسباب الداعية للدعاء بهذه الآية، بعد التكبيرة الرابعة من صلاة الجنازة عند الشافعية([٢٨٣])، لما فيها من عظيم الرجاء.

ووجه الرجاء في الآية الكريمة أن الله تبارك وتعالى أخبر عن أحد مظاهر رحمته بالمؤمنين، وذلك أن الملائكة المقربين منه تعالى، يسبحون الله تسبيحا مصحوبا بالحمد، ويتجدد إيمانهم ومذلتهم له سبحانه، ويستمرون في الاستغفار للمؤمنين، ويقولون في دعائهم:(ربنا وسعت كل شيء رحمة وعلما)، وهذا حسن ثناء مناسب للدعاء، فإن تمييز السعة المسندة إلى ذاته تعالى تدل على تفصيلها بسعة الرحمة والعلم بعد الإجمال في

([٢٨٠]) ينظر:التحرير والتنوير٧٩/٢٤.

([٢٨١]) ينظر:تفسير القرطبي٢٩٣/١٥.

([٢٨٢]) ينظر:التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج ٦/٩.

([٢٨٣]) ينظر:الاستذكار لابن عبد البر٢٢٩/٨، وشرح الرسالة٢٨٠/١-٢٨٤.

(وسعت)، ثم سألوا ربهم المغفرة والوقاية من النار، ودخول الجنة، للذين تابوا، وكذا الصالحين من أصولهم وفروعهم وأزواجهم؛ حتى يسعدوا بهم معهم في الجنة.

وهكذا فإن الآيات قد أخبرتنا أن المقربين من الملائكة يدعون لعامة المؤمنين بما يسعدهم في الدنيا والآخرة. قال ابن بطال رحمه الله:" ومعلوم أن دعاء الملائكة مجاب "[٢٨٤]

القراءات الواردة وأثرها في المعنى:

في قوله:(جنات عدن) بالجمع عند الجمهور، وقرئ[٢٨٥]: جنةَ عدن، بالإفراد، ويطلق على الجنة كلها؛ إذ أنها دار إقامة دائمة، وهو معنى "عدن".

وفي قوله:(وذرياتهم) بالجمع قرأ الجمهور، وقرئ[٢٨٦]:وذريتِهم على الإفراد، و هو بمعنى الجمع.

قال الراغب: الذرية أصلها الصغار من الأولاد ويقع في التعارف على الصغار والكبار معا ويستعمل للواحد والجمع وأصله للجمع[٢٨٧].

الموضع الرابع والعشرون:

(اللَّهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ) (الشورى/١٩).

ذكر القرطبي أنها من آيات الرجاء[٢٨٨].

وقال الآلوسي:"اللَّهُ لَطِيفٌ بِعِبادِهِ بر بليغ البر بهم، يفيض جل شأنه على جميعهم من صنوفه ما لا يبلغه الأفهام، ويؤذن بذلك مادة اللطف، وصيغة المبالغة فيها، وتنكيرها الدال على المبالغة، بحسب الكمية والكيفية، قال حجة الإسلام عليه الرحمة:

إنما يستحق هذا الاسم من يعلم دقائق المصالح وغوامضها، وما دق منها ولطف، ثم يسلك في إيصالها إلى المستصلح سبيل الرفق دون العنف، فإذا اجتمع الرفق في الفعل واللطف في الإدراك تم معنى اللطيف، ولا يتصور كمال ذلك إلا في الله تعالى شأنه، فصنوف البر من المبالغة في الكم، وكونها لا تبلغها الأفهام من المادة والمبالغة في الكيفية؛ لأنه إذا دق جدا كان

---

(٢٨٤) ينظر: شرح صحيح البخاري " (٣/ ٤٣٩).

(٢٨٥) هي قراءة شاذة، نسبت إلى زيد بن علي وعبد الله بن مسعود والأعمش في رواية المفضل، ينظر:مختصر ابن خالويه١٣٢، والبحر المحيط ٤٥٢/٧.

(٢٨٦) قرأ بها عيسى بن عمر كما في المحرر الوجيز ١٢/١٣، والبحر المحيط٤٥٢/٧، ونسبها الصفراوي إلى سليم عن حمزة، ينظر:التقريب والبيان٥٦أ.

(٢٨٧) ينظر:مفردات غريب القرآن للراغب(ذرو)٣٢٧.

(٢٨٨) ينظر:تفسير القرطبي للآية٢٢من سورة النور٢٠٨/١٢، ٢٠٩.

أخفى وأخفى، وإرادة الجميع من إضافة العباد وهو جمع إلى ضميره تعالى فيفيد الشمول والاستغراق، وبالعموم قال مقاتل إلا أنه قال: لطيف بالبر والفاجر حيث لم يقتلهم جوعا.

وقال أبو حيان: لطيف بعباده أي بر بعباده المؤمنين ومن سبق له الخلود في الجنة وما يرى من النعم على الكافر فليس بلطف، إنما هو إملاء إلا ما آل إلى رحمة ووفاة على الإسلام، وحكى الطيبي هذا التخصيص عن الواحدي، ومال إلى ترجيحه، وذلك أنه ادعى أن الإضافة في (عباده) إضافة تشريف؛ إذ أكثر استعمال التنزيل الجليل في مثل ذلك فيختص العباد بأوليائه تعالى المؤمنين، وحمل اللطف على منح الهداية وتوفيق الطاعة وعلى الكمالات الأخروية والكرامات السنية"(٢٨٩).

فوجه الرجاء في الآية الكريمة أن الله عزوجل لطيف بعباده فيما يتعلق بأمر الرزق في الدنيا، ولطيف بهم فيما يتعلق بالأمور الدينية والأخروية، و هي أولى، كما قال القشيري:

"وأكثر ما يستعمل اللطف- فى وصفه- فى الإحسان بالأمور الدينية"(٢٩٠).

الموضع الخامس والعشرون:

(وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ)(الشورى/٣٠)

ذكره الزركشي والسيوطي وغيرهما(٢٩١).

قال علي- رضي الله عنه-: هذه أرجى آية في كتاب الله عز وجل، وإذا كان يكفّر عني بالمصائب ويعفو عن كثير فما يبقى بعد كفارته وعفوه!!(٢٩٢).

ووجه الرجاء في الآية: أن الله تعالى أكرم من أن يثني على عبده في الآخرة العقوبة، فما عفا الله عنه في الدنيا، فالله أكرم وأحلم من أن يعود بالعقوبة بعد عفوه، ولذلك قال الواحدي: إن هذه الآية أرجى آية في القرآن، لأنه جعل ذنوب المؤمنين صنفين: صنف كفره بالمصائب، وصنف عفا عنه، وهو جل وعلا كريم لا يعود في عفوه(٢٩٣).

وقد روي عنه مرفوعا قوله- رضي الله عنه-: «ألا أخبركم بأفضل آية في كتاب الله حدثنا بها النبي ﷺ: وَما أَصابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِما كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ، يا علي، ما أصابكم من مرض أو عقوبة أو بلاء في الدنيا فبما كسبت أيديكم، والله أكرم من أن يثنّى عليكم العقوبة

(٢٨٩) روح المعاني١٣/٢٧.

(٢٩٠) لطائف الإشارات ٣/٣٤٨.

(٢٩١) ينظر:البرهان١/٤٤٦، والإتقان٤/١٤٩-١٥٣.

(٢٩٢) ينظر:تفسير القرطبي١٦/٣٠..

(٢٩٣) ينظر:حياة الحيوان الكبرى٢/١٩٣.

في الآخرة، وما عفا عنه في الدنيا فالله أحلم من أن يعاقب به بعد عفوه(٢٩٤).

وعن أنس- رضي الله عنه- قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا أراد الله بعبده الخير عجل له العقوبة في الدنيا وإذا أراد بعبده الشر أمسك عنه بذنبه حتى يوافي به يوم القيامة»(٢٩٥).

وقال ابن عون: إن محمد بن سيرين لما ركبه الدّين اغتم لذلك، فقال: إني لأعرف هذا الغم، هذا بذنب أصبته منذ أربعين سنة. وقال عكرمة: ما من نكبة أصابت عبدا فما فوقها إلا بذنب لم يكن الله ليغفره له إلا بها، أو لينال درجة لم يكن يوصله إليها إلا بها(٢٩٦).

روى الترمذي عن أبي موسى أنَّ رسول الله- ﷺ- قال: "لا يُصيب عبدًا نكبةٌ فما فوقها أو دونها إلا بذنب، وما يعفو الله- تعالى- عنه أكثر، وقرأ: {وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ}(٢٩٧)، ومن لا ذنب له كالأنبياء- عليهم السلام- قد تصيبهم مصائب، ففي الحديث "أشدُّ الناس بلاءً الأنبياءُ ثم الأمثل فالأمثل" ويكون ذلك لرفع درجاتهم، أو لحكم أخرى يعلمها الله ثم إنَّ المصائب قد تكون عقوبة على الذّنب وجزاء عليه بحيث لا يعاقب عليه في الآخرة إذا تقبل العقوبة بنفس راضية(٢٩٨).

القراءات الواردة وأثرها في المعنى:

في قوله:(فبما كسبت) قرئ في المتواتر(٢٩٩) (بما كسبت) من غير فاء، على جعل "ما" في (وما أصابكم) موصولة مبتدأ، وبما كسبت خبره، وكذلك جاءت في مصاحف المدينة والشام بغير فاء، و حذف الفاء في الشرط جائز.

وقرأ الباقون بالفاء(٣٠٠)، ف"ما"شرطية، ويجوز:موصولة، وكذا جاءت في مصاحف أهل العراق ومكة، وجعلها شرطية أولى من جعلها بمعنى الذي؛ لأنها أعم في كل مصيبة، فكان أقوى في المعنى وأولى، وحذف الفاء من الجواب جائز، وقد ورد عن العرب، ومنه قول كعب بن مالك، وقيل: عبد الرحمن بن حسان(٣٠١):

---

(٢٩٤) ينظر:الدر المثور للسيوطي١٣/١٦٣.

(٢٩٥) رواه الترمذي في الزهد، برقم٢٣٩٦.

(٢٩٦) ينظر:حلية الأولياء (١٧١/٢)، الجامع لأحكام القرآن (٣١/١٦).

(٢٩٧) رواه الترمذي-في التفسير، ٣٥٣/٥، برقم٣٢٥٢.

(٢٩٨) التفسير الوسيط لمجمع البحوث٧٥٩/٩.

(٢٩٩) قرأ بها نافع وابن عامر وأبو جعفر في رواية وشيبة، ينظر:السبعة٥٨١، والنشر٣٦٧/٢.

(٣٠٠) ينظر:المرجعان السابقان.

(٣٠١)البيت من شواهد سيبويه، وقد أورده في "١/ ٤٣٥"، والقافية فيه "سيان" في مكان "مثلان" واختلف في قائل هذا البيت، فنسب في الكتاب إلى حسان بن ثابت، وفي الخزانة للبغدادي "٣/ ٦٤٤": والبيت نسبه سيبويه لعبد

منْ يفعلِ الحسناتِ اللهُ يشكُرُها والشرُّ بالشرِّ عند الله مثـلانِ.

وجعل "ما"شرطية على القراءتين يفيد المعنى من جهتين:

الأولى:عموم المصيبة، وذلك أدعى للرجاء؛ إذ يدخل في معناها كل ما أصاب العبد من وصب أو نصب أو مرض أو غير ذلك، صغيرا كان أو كبيرا.

والأخرى:ترتب الجواب"فبما كسبت أيديكم" على الشرط"ما أصابكم من مصيبة" يشير إلى سبب الإصابة بالمصيبة وهو ما اقترفه العبد من معاص أو سيئات، ويعلم بالإشارة أن ما أصابه ليس من أمارات الغضب الإلهي، بل هو تطهير لبعض ما فعل من الذنوب، ويعفو الله عن كثير.

الموضع السادس والعشرون:

(إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ) (فصلت/٣٠)

و(إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ. أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ)(الأحقاف/١٣، ١٤)

هذا الموضع حكاه ابن أبي حاتم بسنده عن عكرمة عن ابن عباس-رضي الله عنهما، وذكره السيوطي في الإتقان[٣٠٢]

وَالْفَرْقُ بَيْنَ الْمَوْضِعَيْنِ أَنَّ فِي سُورَةِ السَّجْدَةِ ذَكَرَ أَنَّ الْمَلَائِكَةَ يَنْزِلُونَ وَيَقُولُونَ أَلَّا تَخافُوا وَلا تَحْزَنُوا [فصلت: ٣٠] وهاهنا رَفَعَ الْوَاسِطَةَ مِنَ الْبَيْنِ وَذَكَرَ أَنَّهُ فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ فَإِذَا جَمَعْنَا بَيْنَ الْآيَتَيْنِ حَصَلَ مِنْ مَجْمُوعِهِمَا أَنَّ الْمَلَائِكَةَ يُبَلِّغُونَ إِلَيْهِمْ هَذِهِ الْبِشَارَةَ، وَأَنَّ الْحَقَّ سُبْحَانَهُ يُسْمِعُهُمْ هَذِهِ الْبِشَارَةَ أَيْضًا مِنْ غَيْرِ وَاسِطَةٍ[٣٠٣].

وَقَالَ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ: حَدَّثَنَا أَبُو عَبْدِ اللَّهِ الظَّهْرَانِيُّ أَخْبَرَنَا حَفْصُ بْنُ عُمَرَ الْعَدَنِيُّ عَنِ الْحَكَمِ بْنِ أَبَانَ عَنْ عِكْرِمَةَ قَالَ سُئِلَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَيُّ آيَةٍ في كتاب الله تبارك وتعالى أرخص؟ قال قَوْلِهِ تَعَالَى: إِنَّ الَّذِينَ قالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقامُوا عَلَيَّ شَهَادَةَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ[٣٠٤].

على توحيد الله، ولم يخلطوا توحيد الله بشرك غيره به، وانتهوا إلى طاعته فيما أمر

الرحمن بن حسان بن ثابت، ورواه جماعة لكعب بن مالك الأنصاري.

(٣٠٢) ينظر:الإتقان١٥٣/٤.

(٣٠٣) ينظر:تفسير الرازي١٣/٢٨.

(٣٠٤) ينظر:تفسير ابن كثير١٦١/٧.

ونهى([٣٠٥]).

وَاعْلَمْ أَنَّ هَذَا الْكَلَامَ يَدُلُّ عَلَى أَنَّ الْمُؤْمِنَ عِنْدَ الْمَوْتِ وَفِي الْقَبْرِ وَعِنْدَ الْبَعْثِ لَا يَكُونُ فَازِعًا مِنَ الْأَهْوَالِ وَمِنَ الْفَزَعِ الشَّدِيدِ، بَلْ يَكُونُ آمِنَ الْقَلْبِ سَاكِنَ الصَّدْرِ لِأَنَّ قَوْلَهُ أَلَّا تَخافُوا وَلا تَحْزَنُوا يُفِيدُ نَفْيَ الْخَوْفِ وَالْحُزْنِ عَلَى الْإِطْلَاقِ([٣٠٦])..

وَرُوِيَ عَنْ أَبِي بَكْرٍ الصِدّيقِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ:" ثُمَّ اسْتَقامُوا" لَمْ يُشْرِكُوا بِاللَّهِ شَيْئًا. وَرَوَى عَنْهُ الْأَسْوَدُ بْنُ هِلَالٍ أَنَّهُ قَالَ لِأَصْحَابِهِ: مَا تَقُولُونَ فِي هَاتَيْنِ الْآيَتَيْنِ" إِنَّ الَّذِينَ قالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقامُوا" وَ" الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمانَهُمْ بِظُلْمٍ" فَقَالُوا: اسْتَقَامُوا فَلَمْ يُذْنِبُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِخَطِيئَةٍ، فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: لَقَدْ حَمَلْتُمُوهَا عَلَى غَيْرِ الْمَحْمَلِ" قالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقامُوا" فَلَمْ يَلْتَفِتُوا إِلَى إِلَهٍ غَيْرِهِ" وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمانَهُمْ" بِشِرْكٍ" أُولئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ". وَرُوِيَ عَنْ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ عَلَى الْمِنْبَرِ وَهُوَ يَخْطُبُ:" إِنَّ الَّذِينَ قالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقامُوا" فَقَالَ: اسْتَقَامُوا وَاللَّهِ عَلَى الطَّرِيقَةِ لِطَاعَتِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْغُوا رَوَغَانَ الثَّعَالِبِ. وَقَالَ عُثْمَانُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: ثُمَّ أَخْلَصُوا الْعَمَلَ لِلَّهِ. وَقَالَ عَلِيٌّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: ثُمَّ أَدَّوُا الْفَرَائِضَ([٣٠٧]).

وَكُلُّ هَذِهِ الْأَقْوَالِ تَرْجِعُ إِلَى مَعْنَى الِاسْتِقَامَةِ فِي الْإِيمَانِ وَآثَارِهِ، وَعِنَايَةُ هَؤُلَاءِ الْأَرْبَعَةِ أَقْطَابِ الْإِسْلَامِ بِبَيَانِ الِاسْتِقَامَةِ مُشِيرٌ إِلَى أَهَمِّيَّتِهَا فِي الدِّين.

القراءات الواردة وأثرها في المعنى:

في قوله:(ألا تخافوا) هكذا عند الجمهور، أَلَّا تَخافُوا ما تقدمون عليه، فإن الخوف غم يلحق لتوقع المكروه، وَلا تَحْزَنُوا على ما خلفتم، فإنه غم يلحق لوقوعه من فوات نافع أو حصول ضار، وروي هذا عن مجاهد، وقال عطاء بن أبي رباح: لا تخافوا رد حسناتكم فإنها مقبولة ولا تحزنوا على ذنوبكم فإنها مغفورة، وقيل: المراد نهيهم عن الغموم على الإطلاق.

والمعنى أن الله تعالى كتب لكم الأمن من كل غم فلن تذوقوه أبدا و(أن) إما مصدرية و(لا) ناهية أونافية وسقوط النون للنصب، والخبر في موضع الإنشاء مبالغة، وإما مخففة من الثقيلة وتَتَنَزَّلُ مضمن معنى العلم ولا ناهية وأن في الوجهين مقدرة بالباء أي بأن لا تخافوا أو بأنه

([٣٠٥]) تفسير الطبري٤٦٣/٢١.

([٣٠٦]) ينظر:تفسير الرازي٥٦١/٢٧

([٣٠٧]) ينظر:تفسير القرطبي٣٥٨/١٥.

لا تخافوا والهاء ضمير الشأن، وإما مفسرة وتَتَنَزَّلُ مضمن معنى القول ولا ناهية أيضا([٣٠٨]).

وقرأ عبد الله بن مسعود:(لا تخافوا)([٣٠٩]) بإسقاط "أن" على الحكاية، أي:تتنزل عليهم الملائكة قائلين:لا تخافوا ولاتحزنوا، على أنه حال من الملائكة أو استئناف.

وكلتا القراءتين تدلان على بشارة الملائكة لهم بالأمن من الغم والحزن، وأن تلك البشارة صادرة من الله تعالى، وما الملائكة إلا واسطة بينهم وبين ربهم.

وفي قوله في الأحقاف:(فلا خوف) قرأها الجمهور بالرفع والتنوين، ورجحوا أنه مبتدأ، خبره "عليهم"، وقرئ:(فلا خوفَ)([٣١٠]) بالفتح، على أن "لا"نافية للجنس.

وقرئ: (فلا خوفُ)([٣١١]) بالرفع من غير تنوين، وحذف التنوين لكثرة الاستعمال، أو على نية الألف واللام، أي:فلا الخوفُ عليهم.

وسواء أكانت "لا"نافية للجنس أم للوحدة فإن المراد بيانُ دوامِ نفي الخوف والحزنِ عنهم؛ أو أن قراءة الرفع تشير إلى نفي الخوف من العقاب، وأما خوف الهيبة والجلال فلا يزول عنهم.

الموضع السابع والعشرون:

(بَلَاغٌ ۚ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ)(الأحقاف/٣٥).

نص على القول بكونها أرجى آية الزركشي والسيوطي وغيرهما([٣١٢])

و نسبه السيوطي لأبي جعفر النحاس، لكن الذي يظهر من خلال كلام النحاس في كتابه إعراب القرآن أنه ليس قوله، حيث إنه قال:" ويقال-بصيغة البناء للمجهول- إن هذه الآية من أرجى آية في القرآن([٣١٣]).

ووجه الرجاء فيها أن الآية الكريمة قد اقتصرت في الإهلاك بالعذاب على الكفار؛ فأطمعت المسلمين في رحمة الله تبارك وتعالى.

(وَقَوله: {الفاسقون} أَي: الْكَافِرُونَ، وَالْفَاسِق: [هُوَ] الْخَارِج عَن طَاعَة الله، وَذَلِكَ الْكَافِر، قَالَ قَتَادَة: لَا يهْلك على الله إِلَّا هَالك، ثمَّ فسر الْهَالِك قَالَ: هُوَ كَافِر ولى الْإِسْلَام ظَهره، أَو

([٣٠٨]) روح المعاني١٢/٣٧٣.

([٣٠٩]) هي قراءة شاذة، ينظر:مختصر ابن خالويه١٣٣، ومعاني الفراء٣/١٨.

([٣١٠]) شاذة، نسبت إلى الزهري وعيسى الثقفي ويعقوب والحسن كما في الإتحاف٢/٥٠٣.

([٣١١]) شاذة، نسبت إلى ابن محيصن بخلاف عنه، وابن السميفع كما في النشر٢/٢١١، والإتحاف٢/٥٠٣.

([٣١٢])ينظر:البرهان١/٤٤٦، والإتقان٤/١٤٩-١٥٣.

([٣١٣])إعراب القرآن لأبي جعفر النحاس:٤/١١٦.

مُنَافِق يصف الْإِيمَان بِلِسَانِهِ وينكر بِقَلْبِه([314]).

هذه أرجى آية في كتاب الله يرجوها إنسان([315])، وهي كما قال نبينا ﷺ:(لا يهلك على الله إلا هالك)([316]).

القراءات الواردة وأثرها في المعنى:

في قوله: (فهل يُهلَكُ إلا القومُ الفاسقون) هكذا في المتواتر، ببناء الفعل للمفعول، والقوم نائب فاعل، والفاسقون صفته، وهذه القراءة تدل على وقوع الهلاك على الفاسقين، ويفهم منه نجاة المؤمنين من الهلاك.

وقرئ:(فهل يَهلَك إلا القومُ الفاسقون)([317])، من هَلِك يَهلَك كلعِب يلعَب، وهي لغة، وهو مبني للفاعل، وهي تشير إلا نسبة الهلاك للفاسقين؛ إذ أنهم تسببوا فيه لأنفسهم، ويفهم منه نجاة المؤمنين؛ لأنهم سلكوا طريق النجاة، فأخذ الله بأيديهم، وأدخلهم في رحمته وفضله.

وقرأ زيد بن ثابت والحسن:(فهل يُهْلِكُ إلا القومَ الفاسقين) من أهلك المتعدي بالهمزة، أي أن الله جل جلاله بعدله لا يهلك إلا القوم الفاسقين، ومنه يفهم أن الله بفضله ينجي المؤمنين.

وقرئ:(فهل نُهْلِكُ إلا القومَ الفاسقين)([318])، وهي مثل القراءة السابقة، ولكنها بنون العظمة في "نهلك" دلالة على عظم الهلاك، وعظيم العدل الإلهي.

وبمجموع قراءتي البناء للمفعول والبناء للفاعل في "يُهلَك"و"يَهْلَك" يفهم الرجاء المأمول في قصر الهلاك أوالإهلاك على القوم الفاسقين، من إنجاء أو نجاة المؤمنين، كما يفهم منه أن النجاة من العذاب هو الأصل؛ لاتفاقه مع الفطرة، وأن الهلاك خاص بمن فسق (خرج)عن طريق المؤمنين.

الموضع الثامن والعشرون:

(ذلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكافِرِينَ لا مَوْلى لَهُمْ)(محمد/١١)

المولى هنا بمعنى الناصر، فالله ناصر للذين آمنوا، وأمّا الكافرون فلا ناصر لهم.

([314]) ينظر:لطائف الإشارات ١٦٦/٥.

([315])جزء من حديث أخرجه أحمد والبخاري ومسلم من حديث ابن عباس، قال الحافظ في شرح قوله: ولا يهلك على الله إلا هالك، أي من أصر على التجرئ على السيئة عزمًا وقولًا وفعلًا، وأعرض عن الحسنات هما وقولًا وفعلًا. انتهى.

([316])تفسير المنتصر الكتاني٣٣٦/٤

([317]) ينظر:مختصر ابن خالويه١٤٠، والمحتسب ٢٦٨/٣.

([318]) ينظر:مختصر ابن خالويه١٤٠، والكشاف ١٢٦/٣، والبحر المحيط٦٩/٨، وروح المعاني٣٦/٢٦.

أو المولى من الموالاة وهي ضد المعاداة، فيكون بمعنى المحب فهو مولى الذين آمنوا أي محبّهم، وأما الكافرون فلا يحبهم الله.

ويقول تعالى في آية أخرى: (وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِياؤُهُمُ الطَّاغُوتُ) (البقرة/ ٢٥٧).

أي: أن الله مولى الذين آمنوا، وناصرهم ومؤيدهم وراحمهم في دنياهم وأخراهم، وأن الكافرين لا معين لهم ولا ناصر من دون الله.

ويصح أن يقال إنّ هذه أرجى آية في القرآن(كما ذكر في لطائف الإشارات)؛ ذلك بأنه سبحانه يقول: «بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا» ولم يقل: مولى الزهّاد والعبّاد وأصحاب الأوراد والاجتهاد فالمؤمن- وإن كان عاصيا- من جملة الذين آمنوا، (لا سيما و«آمَنُوا»فعل، والفعل لا عموم له)([٣١٩])

فإن قلت: قوله تعالى وَرُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلاهُمُ الْحَقِّ مناقض لهذه الآية. قلت:

لا تناقض بينهما، لأن الله مولى عباده جميعا على معنى أنه ربهم ومالك أمرهم وأما على معنى الناصر فهو مولى المؤمنين خاصة([٣٢٠])

فَإِنْ قِيلَ كَيْفَ الْجَمْعُ بَيْنَ قَوْلِهِ تَعَالَى: لَا مَوْلى لَهُمْ وَبَيْنَ قَوْلِهِ مَوْلاهُمُ الْحَقِّ [الْأَنْعَامِ: ٦٢]، نَقُولُ الْمَوْلَى وَرَدَ بِمَعْنَى السَّيِّدِ وَالرَّبِّ وَالنَّاصِرِ فَحَيْثُ قَالَ: لَا مَوْلى لَهُمْ أَرَادَ لَا نَاصِرَ لَهُمْ، وَحَيْثُ قَالَ: مَوْلاهُمُ الْحَقِّ أَيْ رَبُّهُمْ وَمَالِكُهُمْ، كَمَا قَالَ: يا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ [النساء: ١]، وقال: رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبائِكُمُ الْأَوَّلِينَ [الشعراء: ٢٦]، وَفِي الْكَلَامِ تَبَايُنٌ عَظِيمٌ بَيْنَ الْكَافِرِ وَالْمُؤْمِنِ لِأَنَّ الْمُؤْمِنَ يَنْصُرُهُ اللَّهُ وَهُوَ خَيْرُ النَّاصِرِينَ، وَالْكَافِرَ لَا مَوْلَى لَهُ بِصِيغَةٍ نَافِيَةٍ لِلْجِنْسِ، فليس له ناصر([٣٢١])

القراءات الواردة وأثرها في المعنى:

في قوله:(مولى الذين آمنوا) هكذا قرأ الجمهور، ومعناه:الولي والناصر.

وقرأ عبدالله بن مسعود (ولي الذين آمنوا) وهي محمولة على التفسيرلمعنى (مولى)؛ حتى لا يفهم أنها متناقضة مع قوله تعالى: ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلاهُمُ الْحَقِّ [يونس: ٣٠] لأن المولى هناك بمعنى المالك فلم يتوارد النفي والإثبات على معنى واحد([٣٢٢]).

([٣١٩])لطائف الإشارات للقشيري٤٠٦/٣

([٣٢٠]) الكشاف٣١٩/٤.

([٣٢١]) تفسير الرازي٤٤/٢٨.

([٣٢٢]) روح المعاني٢٠٢/١٣.

الموضع التاسع والعشرون:

(وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ)(محمد/١٩).

ذكر الزحيلي(٣٢٣) أن أرجى آية للمؤمنين هذه الآية؛ لأنه- عَزَّ وَجَلَّ- أمر رسوله- عليه السلام- أن يستغفر لهم، فلا يحتمل ألا يستغفر وقد أمره مولاه بالاستغفار، ثم لا يحتمل- أيضًا- أنه إذا استغفر لهم على ما أمره به فلا يجيب له، وكذلك دعاء سائر الأنبياء- عليهم السلام- نحو دعاء نوح- عليه السلام-: (رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَنْ دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ)، وقول إبراهيم- عليه السلام-: (رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ)، ونحو ذلك، وكذا استغفار الملائكة لهم- أيضًا- لقوله: (وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَنْ فِي الْأَرْضِ)، وقوله: (فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ...) الآية، هذه الآيات أرجى آيات للمؤمنين ودعوات الأنبياء- عليهم السلام- أفضل وسائل تكون إلى الله- تعالى- وأعظم قربة عنده، والله الموفق.

فالمقصود بقوله: (واستغفر لذنبك والمؤمنين) يعني: سلني أن أغفر لأمتك، فكون الرسول عليه الصلاة والسلام يسأل الله شيئًا، فهو يحب هذا الشيء، و يرضى بالإجابة، وإذا ثبت أن الذي يرضاه الرسول ﷺ لأمته هو الإجابة لا الرد، وقد دلت هذه الآية على أن الله سبحانه وتعالى يعطيه كل ما يرتضيه، علمنا أن هذه الآية دالة على الشفاعة في حق المذنبين.

إذا كان الرجل يقول في حق الذي هو مثله من البشر:

لو لم تُرِدْ نَيلَ ما أرجو وأطلبُه   من جُود كفَّيكَ ما عَلَّمْتَني الطَّلبا

يقول له: لو لم ترد، أي: لو لم تكن تحب أن تعطيني لما كنت تعلمني أن أطلب منك، فكيف يكون في حق الله عز وجل الذي علمنا أن ندعوه، بل أمر نبيه ومصطفاه ﷺ أن يستغفر للمؤمنين والمؤمنات، وضمن له الإجابة؟!

"وهذا إكرام من الله تعالى لهذه الأمة حيث أمر نبيهم- ﷺ- أن يستغفر لذنوبهم وهو الشفيع المجاب فيهم"(٣٢٤).

وذكر {المؤمنات} بعد {المؤمنين} اهتمام بهن في هذا المقام وإلا فإن الغالب اكتفاء القرآن بذكر المؤمنين وشموله للمؤمنات على طريقة التغليب للعلم بعموم تكاليف الشريعة للرجال

---

(٣٢٣) ينظر:تفسير الزحيلي٩/٢٧٥.

(٣٢٤) تفسير البغوي٧/٢٨٥.

والنساء إلا ما استثني من التكاليف(٣٢٥).

من رحمة الله بعباده المؤمنين أن أمر نبيهم وشافعهم ورسولهم أن يستغفر لنفسه ويستغفر للمؤمنين والمؤمنات، جاء بدوي اسمه لقيط بن عامر إلى رسول الله ﷺ فآمن به واتبعه فقال هذا البدوي: غفر الله لك يا رسول الله.

أي أنه دعا لرسول الله بالمغفرة، والصلاة منا كذلك دعاء، فلا يستغني عبد عن دعاء، والنبي ﷺ هو في الدرجات العلى: {وَلَلآخِرَةُ خَيْرٌ لَكَ مِنَ الأُولَى} [الضحى:٤] ويزيده الله مقامات على مقاماته، ومنازل على منازله مدة الدنيا والآخرة.

{وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ} [محمد:١٩] وإذا استغفر النبي ﷺ لعبد-أي: طلب أن يغفر الله له- فتلك شفاعة منه إلى الله لهذا العبد المؤمن المسكين(٣٢٦)

الموضع الثلاثون:

(يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ. أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ) (البلد/١٥، ١٦).

قال الزركشي(٣٢٧): رَأَيْتُ فِي مَنَاقِبِ الشَّافِعِيِّ لِلْإِمَامِ أَبِي مُحَمَّدٍ إِسْمَاعِيلَ الْهَرَوِيِّ صَاحِبِ الْحَاكِمِ بِإِسْنَادِهِ عَنِ ابْنِ عَبْدِ الْحَكَمِ قَالَ: سَأَلْتُ الشَّافِعِيَّ: أَيُّ آيَةٍ أَرْجَى؟ قَالَ قَوْلُهُ تَعَالَى:(يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ. أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ). و"يتيما"معمول للمصدر "إطعام"، وتوضحه قراءة "أطعمَ" بالفعل الماضي، كما سيأتي.

وحكاها السيوطي في الإتقان(٣٢٨). ولم يبين وجهها.

ووجه الرجاء في الآية الكريمة أن الله تعالى حض على إطعام الطعام في اليوم الشديد لليتيم لاسيما إذا كان ذا قرابة، وللمسكين لاسيما إذا كان معدما فنحن نرجوه سبحانه في يوم القيامة-وليس هناك يوم أشد منه- أن يطعمنا مغفرته ورحمته، ونحن الفقراء إليه، وليس لنا أحد سواه!

فحاشاه أن يتركنا هملا، ونحن إلى المغفرة أحوج منا إلى الطعام.

وهناك وجه لطيف آخر، وهو تخفيف التكليف بالحض على إطعام اليتيم القريب، وكذا المسكين المعدم، وهذا الحض يتفق مع ميل النفس نحو مساعدة من كانت هذه صفته دون أدنى

---

(٣٢٥) التحرير والتنوير٢٦/١٠٥.

(٣٢٦) تفسير المنتصر الكتاني٣٤٧/٧.

(٣٢٧) ينظر:البرهان للزركشي ١/ ٤٤٧.

(٣٢٨) ينظر:الإتقان٤/١٤٩-١٥٣.

تكلف، أو بذل جهد، فإذا كانت هذه معاملة الله لنا في دار التكليف، فكيف برحمته ولطفه في دار التشريف؟!

(يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ) أَيْ قَرَابَةٍ، يُقَالُ: فُلَانٌ ذُو قَرَابَتِي وَذُو مَقْرَبَتِي، يُعْلِمُكَ أَنَّ الصَّدَقَةَ عَلَى الْقَرَابَةِ أَفْضَلُ مِنْهَا عَلَى غَيْرِ الْقَرَابَةِ، كَمَا أَنَّ الصَّدَقَةَ عَلَى الْيَتِيمِ الَّذِي لَا كَافِلَ لَهُ أَفْضَلُ مِنَ الصَّدَقَةِ عَلَى الْيَتِيمِ الَّذِي يَجِدُ مَنْ يَكْفُلُهُ، وَأَهْلُ اللُّغَةِ يَقُولُونَ: سُمِّيَ يَتِيمًا لِضَعْفِهِ، يُقَالُ: يَتِمَ الرَّجُلَ يتما: إذا ضعف... (أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ) أي:لا شي لَهُ، حَتَّى كَأَنَّهُ قَدْ لَصِقَ بِالتُّرَابِ مِنَ الْفَقْرِ، لَيْسَ لَهُ مَأْوًى إِلَّا التُّرَابَ.[329]

القراءات الواردة وأثرها في المعنى:

في قوله:(فكُّ رقبةٍ أو إطْعامٌ في يوم ذي مسغبة يتيما) هكذا قرئ في المتواتر[330]

فاجتياز عقبة الصراط أو النار، أو شدائد المعاصي وآثارها بعتق رقبة في سبيل الله، أو إطعام الأيتام والمساكين يكون بما ذكر، بعد فضل الله ورحمته.

وقرئ كذلك في المتواتر:(فكَّ رقبةً أو أطعَمَ)[331]، فعلان ماضيان؛ حكاية للحال الماضية في الدنيا التي كانت تؤهله لاقتحام العقبة-إن هو فعلها-، فمن ابتغى النجاة فليفعل ذلك الفعل المحمود، وَمَنْ قَرَأَ فِعْلًا مَاضِيًا، فَلَا يُحْتَاجُ إِلَى تَقْدِيرِ مُضَافٍ، بَلْ يَكُونُ التَّعْظِيمُ لِلْعَقَبَةِ نَفْسِهَا، وَيَجِيءُ فَكَّ بَدَلًا مِنِ اقْتَحَمَ، قَالَهُ ابْنُ عَطِيَّةَ. وَفَكُّ الرَّقَبَةِ: تَخْلِيصُهَا مِنَ الْأَسْرِ وَالرِّقِّ[332] وَمَنْ قَرَأَ بِالنَّصْبِ فَهُوَ مَحْمُولٌ عَلَى الْمَعْنَى، أَيْ وَلَا فَكَّ رَقَبَةً، وَلَا أَطْعَمَ فِي يَوْمٍ ذَا مَسْغَبَةٍ، فَكَيْفَ يُجَاوِزُ الْعَقَبَةَ.

وقرئ في الشواذ:(فكُّ رقبةٍ أو أطعَمَ)[333]، فالأول مصدر، والآخر فعل ماض، وفيه التعبير عن فك الرقبة بالاسمية المفيدة للدوام والثبوت، فإذا كان المراد منها الحض على عتق رقبة فهذا دليل على أهميته، وأنه السبب الأول والأولى في اجتياز العقبة الكؤود في الآخرة، وما أورده ابن كثير من الأحاديث كاف في بيان فضله، وإذا كان المراد فك رقبته هو من

([329]) ينظر:تفسير القرطبي٦٩/٢٠.

([330]) قرأ بها نافع وابن عامر وعاصم وحمزة وعبد الوارث عن أبي عمرو والحسن وأبو رجاء، ينظر:التيسير ٢٢٣، والسبعة٦٨٦، والنشر٤٠١/٢.

([331]) قرأ بها ابن كثير والكسائي وعبيد وعلي بن نصر عن أبي عمرو وابن محيصن واليزيدي والحسن وعلي بن أبي طالب وأبو رجاء وابن أبي إسحاق وزيد عن الداجوني، ينظر:المراجع السابقة.

([332]) ينظر:البحر المحيط٤٨٣/١٠.

([333]) ينظر:البحر المحيط ٤٧٦/٨، وروح المعاني١٧٧/٣٠.

النار فهو آكد في الحض، قَالَ الْمَاوَرْدِيُّ: وَيَحْتَمِلُ ثَانِيًا أَنَّهُ أَرَادَ فَكَّ رَقَبَتِهِ وَخَلَاصَ نَفْسِهِ، بِاجْتِنَابِ الْمَعَاصِي، وَفِعْلِ الطَّاعَاتِ، وَلَا يَمْتَنِعُ الْخَبَرُ مِنْ هَذَا التَّأْوِيلِ، وَهُوَ أَشْبَهُ بِالصَّوَابِ(٣٣٤).

وقرئ:(وأطعمَ) بالواو بدلا من "أو" ذكرها أبو جعفر النحاس(٣٣٥).أي جمع بين عتق الرقبة وإطعام الطعام.

وقرئ:(فكَّ رقبةً أو أطعمَ في يوم ذا مسغبة)(٣٣٦) كقراءة ابن كثير، إلا أنها بنصب"ذا" بالألف.

أي أطعم إنسانا ذا مسغبة، فهو في الأصل صفة لموصوف محذوف يقع مفعولا به، ويعرب مفعولا به على التوسع.

وقرئ(فكُّ رقبة أو إطعام في يوم ذا مسغبة)(٣٣٧) كالقراءة السابقة، إلا أنها بالمصدر في "فك"و"إطعام".

قال الفراء:تجعلها من صفة اليتيم، كأنه قال:أو أطعم في يوم يتيما ذا مسغبة(٣٣٨).

يعني على المعنى، أما على تركيب النظم فإن "ذا"صفة لموصوف محذوف، والتقدير إنسانا صاحب مسغبة، ثم فسره بالبدل في "يتيما".فكأن إطعام الطعام لأي إنسان كائنا من كان يعد من الصدقة، ولكن إطعام اليتيم أولى، وإطعام اليتيم القريب أفضل؛ لأنها صدقة وصلة.

وبمجموع هذه القراءات يُفهَم عظيمُ رحمة الله ولطفه بعباده؛ إذْ دلهم على طريق نجاتهم، وأسباب فلاحهم، وأهمية عتق الرقبة وفك العاني، وإطعام الطعام لذوي الحاجة، من الأيتام والمساكين، لا سيما ذوي القربى، وبين لهم عاقبة من لم يفعل ذلك منهم؛ فلم يفك الرقبة ولم يطعم الطعام، من عدم قدرته على اجتياز العقبة الكؤود.

وفي جميع ذلك رجاءُ عفوِ الله ورحمتِه؛ فمَن لَطَف بعباده في الدنيا، ولم يكلفْهم إلا بما في وسعهم، و مَن رحم عبادَه الضعفاءَ، فحض الأغنياءَ على إطعامهم، وفك العاني منهم، مَن

---

(٣٣٤) تفسير القرطبي٦٨/٢٠.

(٣٣٥) ينظر:إعراب النحاس٧٠٩/٣.

(٣٣٦) وهي قراءة شاذة من هذا الوجه(بنصب "ذا")، ونسبت إلى علي وأبي رجاء كما في إعراب القراءات الشواذ ٧١٥/٢، والبحر المحيط٤٧٦/٨.

(٣٣٧) وهي قراءة شاذة، نسبت إلى الحسن وأبي رجاء وعلي بن أبي طالب، ينظر: مختصر ابن خالويه ١٧٤، والمحتسب٢٦٢/٢.

(٣٣٨) ينظر:معاني القرآن للفراء٢٦٥/٣.

فعل ذلك بهم في الدنيا يُؤَمَّل فيه أن تسعَهم رحمتُه في الآخرة.

الموضع الحادي والثلاثون:

(وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ) (الضحى/٥).

وهذا الموضع هو مسك الختام، وختام المسك، وهو من بركات ترتيب المصحف الشريف، الذي انتهجناه في بحثنا هذا، لعل الله تعالى يرزقنا أهلية القرآن والشفاعة!

وقد ذكره الزركشي والسيوطي وغيرهما([٣٣٩])، واستدلوا بمَا أَخْرَجَهُ أَبُو نُعَيْمٍ فِي الْحِلْيَةِ عَنْ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ أَنَّهُ قَالَ: "إِنَّكُمْ يَا مَعْشَرَ أَهْلِ الْعِرَاقِ تَقُولُونَ: أَرْجَى آية في القرآن: {قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا} الآية لَكِنَّا أَهْلَ الْبَيْتِ نَقُولُ: إِنَّ أَرْجَى آيَةٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ (وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ) وَهِيَ الشَّفَاعَةُ([٣٤٠]).

وذكر الصفاقسي أن أحد أسباب التكبير عند قراءة "والضحى" أن رسول الله- ﷺ- كبر فرحا وسرورا بالنعم التي عددها الله عليه في سورة والضحى لا سيما نعمة قوله: (وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ) وقد قال أهل البيت هي أرجى آية في كتاب الله، وقال- ﷺ- لما نزلت: «إذن لا أرضى وواحد من أمتى في النار»([٣٤١])، و ذكر جماعة من المفسرين أن هذه الآية في الشفاعة، وهو قول علي والحسن وعطاء عن ابن عباس، قال هو الشفاعة في أمته([٣٤٢])

وَعَنِ الْبَاقِرِ، أَهْلُ القرآن يقولون: أرجى آية قوله: يا عِبادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلى أَنْفُسِهِمْ [الزُّمَرِ: ٥٣] وَإِنَّا أَهْلَ الْبَيْتِ نَقُولُ: أَرْجَى آيَةٍ قَوْلُهُ: وَاللَّهِ إِنَّهَا الشَّفَاعَةُ لَيُعْطَاهَا فِي أَهْلِ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ حَتَّى يَقُولَ رَضِيتُ، هَذَا كُلُّهُ إِذَا حَمَلْنَا الْآيَةَ عَلَى أَحْوَالِ الْآخِرَةِ، أَمَّا لَوْ حَمَلْنَا هَذَا الْوَعْدَ عَلَى أَحْوَالِ الدُّنْيَا فَهُوَ إِشَارَةٌ إِلَى مَا أَعْطَاهُ اللَّهُ تَعَالَى مِنَ الظَّفَرِ بِأَعْدَائِهِ يَوْمَ بدر([٣٤٣]).

والأولى العموم كما قال أبو حيان([٣٤٤]).

وفي روح المعاني:" وأخرج البيهقي في شعب الإيمان عنه أنه قال: ﷺأن يدخل أمته كلهم الجنة. وفي رواية الخطيب في تلخيص المتشابه من وجه آخر عنه لا يرضى محمد ﷺ وأحد

([٣٣٩]) ينظر:البرهان٤٤٦/١، والإتقان ١٥٠/٤.

([٣٤٠]) ذكره السيوطي في جامع الأحاديث برقم ٣٣١٧٩، وضعفه صاحب جامع الأحاديث القدسية، و نسب القول بالضعف للهيثمي في مجمع الزوائد، وليس فيه.

([٣٤١]) غيث النفع٦٢٨/١

([٣٤٢]) التوضيح عن توحيد الخلاق في جواب أهل العراق٣٢٩/١

([٣٤٣]) ينظر:تفسير الرازي٣١/ ١٩٤.

([٣٤٤]) ينظر:البحر المحيط٤٩٦/١٠.

من أمته في النار، وهذا ما تقتضيه شفقته العظيمة عليه الصلاة والسلام على أمته، فقد كان ﷺ حريصا عليهم، رؤوفا بهم، مهتما بأمرهم.

وقد أخرج مسلم كما في الدر المنثور عن ابن عمر أنه ﷺ تلا قول الله تعالى في إبراهيم عليه السلام (فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي) [إبراهيم: ٣٦] وقوله تعالى في عيسى:(إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبادُكَ) (المائدة:١١٨).. الآية، فرفع عليه الصلاة والسلام يديه وقال: «اللهم أمتي أمتي» وبكى، فقال الله تعالى: يا جبريل اذهب إلى محمد ﷺ فقل له إنا سنرضيك في أمتك ولا نسوؤك(٣٤٥).

وفي إعادة اسم الرب مع إضافته إلى ضميره عليه الصلاة والسلام ما لا يخفى أيضا من اللطف به ﷺ(٣٤٦).

وقال صاحب أضواء البيان(٣٤٧):وقوله تعالى:(وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ) جاء مؤكدا باللام وسوف، وقال بعض العلماء: يعطيه في الدنيا من إتمام الدين وإعلاء كلمة الله، والنصر على الأعداء.

والجمهور: أنه في الآخرة، وهذا وإن كان على سبيل الإجمال، إلا أنه فصل في بعض المواضع، فأعظمها ما أشار إليه قوله تعالى:(عسى أن يبعثك ربك مقاما محمودا) (الإسراء/٧٩).

وجاء في السنة بيان المقام المحمود، وهو الذي يغبطه عليه الأولون والآخرون، كما في حديث الشفاعة العظمى حين يتخلى كل نبي، ويقول: " نفسي نفسي، حتى يصلوا إلى النبي- ﷺ- فيقول: أنا لها أنا لها " إلخ.

ومنها:الحوض المورود، وما خصت به أمته غرا محجلين، يردون عليه الحوض.

ومنها: الوسيلة، وهي منزلة رفيعة عالية لا تنبغي إلا لعبد واحد، كما في الحديث: " إذا سمعتم المؤذن فقولوا مثل ما يقول، ثم صلوا علي وسلوا الله لي الوسيلة، فإنها منزلة في الجنة لا تنبغي إلا لعبد واحد، وأرجو أن أكون أنا هو ".

وإذا كانت لعبد واحد فمن يستقدم عليها، وإذا رجا ربه أن تكون له، طلب من الأمة أن

---

(٣٤٥) صحيح مسلم، باب: دعاء النبي، (١/ ١٩١)، ورواه ابن حبان في صحيحه، برقم٧٣٥٨، والنسائي في الكبرى، برقم٩٨٩٥.

(٣٤٦) روح المعاني١٥/٣٨٠.

(٣٤٧) ينظر:أضواء البيان ٥٥٩/٨، بتصرف.

يسألوا الله له، فهو مما يؤكد أنها له، وإلا لما طلبها ولا ترجاها، ولا أمر بطلبها له. وهو بلا شك أحق بها من جميع الخلق، إذ الخلق أفضلهم الرسل، وهو- ﷺ- مقدم عليهم في الدنيا، كما في الإسراء تقدم عليهم في الصلاة في بيت المقدس.

ومنها: الشفاعة في دخول الجنة، كما في الحديث: " أنه- ﷺ- أول من تفتح له الجنة، وأن رضوان خازن الجنة يقول له: أمرت ألا أفتح لأحد قبلك ".

ومنها: الشفاعة المتعددة حتى لا يبقى أحد من أمته في النار، كما في الحديث: " لا أرضى وأحد من أمتي في النار " أسأل الله أن يرزقنا شفاعته، ويوردنا حوضه. آمين.

وشفاعته الخاصة في الخاص في عمه أبي طالب، فيخفف عنه بها ما كان فيه.

ومنها: شهادتة على الرسل، وشهادة أمته على الأمم وغير ذلك، وهذه بلا شك عطايا من الله العزيز الحكيم لحبيبه وصفيه الكريم ﷺ.

وعبر بعض الشعراء عن هذا المعنى فقال:

قرأنا في الضحى ولسوف يعطي فسر قلوبَـــنا ذاك العطـــــــاءُ

وحاشا يا رســـــول الله ترضى وفينـــا من يعـــذب أو يســاءُ

و إذا صح قوله: (لا أرضى وواحد من أمتي في النار) فالمقصود أمة الإجابة، وإن كان هناك أحاديث أخرى فيها معنى قريب من هذا، لكن ليس بنفس الإطلاق، مثل حديث: (لا أزال أشفع يوم القيامة فأشفع حتى يناديني ربي: أقد رضيت يا محمد؟! فأقول: أي رب رضيت) هذا في حق من أذن له في الشفاعة فيهم.

وصح أيضًا في الحديث: أن النبي ﷺ قال: (لا أزال أشفع يوم القيامة فأشفع حتى يناديني ربي أقد رضيت يا محمد؟! فأقول: أي ربي رضيت) صلى الله عليه وآله وسلم.

وقال الآخر مخاطبًا النبي ﷺ:

أترضى– حبيـــبي- أن تكون مُنَعَّمًا ونحنُ علَى جَمـــرِ اللَّظى نَتَقـلَّـــــبُ

ألم يرضِك الرحمنُ في سورة الضُّحى وحاشـــاكَ أن تَرْضــَى وفينا مُعَـــذَّبُ

والنبي ﷺ لا يرضى الرضا الكامل إلا إذا وقعت شفاعته لجميع أمته كاملة، فهذا أمر يكون في المستقبل، فلا ينافي دخول بعض أمته النار ابتداءً، لكنْ يشفع النبي ﷺ في أهل الكبائر من الموحدين، فالمقصود بالرضا أنهم لا يخلدون في النار.

فلا يهلك ولا يقضى عليه إلا من لقي ربه وهو لا يؤمن بالله ألبتة، وكما قال عليه الصلاة والسلام: (شفاعتي لأهل الكبائر من أمتي)، وإلا فالصغائر يمحوها الله ما بين الأوقات مع

الوضوء والغسل، ولكن المرتكب للكبائر هو الذي يحتاج للمغفرة ويحتاج للشفاعة، وقد وعدها رسول الله ﷺ أمته من أهل الكبائر، قال تعالى: {قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا} [الزمر:٥٣].

القراءات الواردة وأثرها في المعنى:

في قوله: (ولسوف يعطيك) هكذا قرأ الجمهور بلام الابتداء المؤكدة لمضمون الجملة، لا للقسمِ؛ لأنَّها لا تدخلُ على المضارعِ، إلاَّ معَ النونِ المؤكدةِ، والمبتدأ محذوف، تقديره: ولأنت سوف يعطيك.

وقيلَ:اللام للقسمِ وقاعدةُ التلازمِ بينَها وبينَ نونِ التأكيدِ قد استثنى النحاة منهَا صورتينِ: إحداهُمَا أنْ يفصلَ بينَها وبينَ الفعلِ بحرفِ التنفيسِ، كهذه الآية، وكقولِه: واللهِ لسأعطيكَ، والثانيةُ:أن يُفصلَ بينهما بمعمولِ الفعلِ، كقولِه تعالَى: {لإِلَى الله تُحْشَرُونَ} وقال أبُو عليَ الفارسيُّ: ليستْ هذه اللامُ هيَ التي في قولِكَ إنَّ زيدًا لقائمٌ، بلْ هيَ التي في قولِكَ لأقومَنَّ، ونابتْ سوفَ عن إحدَى نونِي التأكيدِ فكأنَّه قيلَ وليعطينكَ([٣٤٨])

أي أن الفارسي يرجح كون اللام للقسم، وهو ما أميل إليه؛ لقيام حرف التنفيس مقام نون التوكيد، ولأن سياق السورة يقتضيه، كما هو ظاهر من مطلعها إلى منتهاها، وحسبنا ذلك شاهدا ودليلا.

قال الزمخشري:"فإن قلت: ما معنى الجمع بين حرفى التوكيد والتأخير؟ قلت: معناه أن العطاء كائن لا محالة وإن تأخر، لما في التأخير من المصلحة"([٣٤٩]).

وقرأ ابن مسعود:(ولسيعطيك)([٣٥٠]) باللام والسين، وذكر ابن عطية أنها كذلك في مصحفه([٣٥١])، وهي تشير إلى قرب الإعطاء، بدلالة السين على المستقبل القريب، كما أنها ترشح معنى القسم في اللام، كأنها نابت مناب نون التوكيد، خلافا لبعض النحاة.

كما قرأ ابن مسعود أيضا:(وسيعطيك)([٣٥٢]) بالسين من دون لام، وهي تشير إلى وعد الله له بإعطائه ما يحبه ويرضاه في الدنيا من إعلاء كلمة الله، وفشو الدعوة، ودخول الناس في دين الله أفواجا، ونحو ذلك.

([٣٤٨]) ينظر:تفسير أبي السعود١٧٠/٩، بتصرف يسير.

([٣٤٩]) الكشاف٧٦٧/٤.

([٣٥٠]) هي قراءة شاذة، كما في مختصر ابن خالويه٨٥، ومعاني الفراء٣٧٤/٣،

([٣٥١]) المحرر الوجيز٤٨٩/١٥.

([٣٥٢]) ينظر:إعراب النحاس ٧٢٥/٣.

ولا مانع من إفادتها عطاءات الآخرة؛ لأنها قريبة بالنظر إلى عمر الدنيا، وكون بعثته ﷺ من أشراط الساعة، ولأنها آتية لاريب فيها، وكل آت قريب.

اللهم إن آياتِ الرجاءِ في كتابك قد أطْمَعَتْنَا في رحمتِك، وزَادَتْ شوقَنا في لقائِك، فأَطْعِمنَا رضوانَك وجنانَك، وأذِقْنا برحمتِك بَرْدَ عَفْوِك، ولا تجعلْنا من الآيسين: {إِنَّهُ لا يَيْئَسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الكَافِرُونَ}، وقد آمنا بك، فآمِنَّا من عذابِك (يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ.إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ)!

* * *

الخاتمة

الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله، والصلاة والسلام على خاتم النبيين، البشير النذير، سيدنا محمد رسول الله، وعلى آله وصحبه ومن والاه، وبعد،

فقد عشت في رحاب آياتٍ من الذكر الحكيم، قال عنها العلماء المتدبرون، والعُبّاد الراجون:إنها أرجى الآيات في القرآن الكريم، و لو لم يكن لمثلي إلا الوقوفُ على هذه النُّجوم القرآنية، واللآلئ النورانية، ومحاولة التماس وجه الرجاء في كل آية منها لكفاني**!**

وكيف لا؟ وقد أفدت كثيرا مما سطره أصحاب الصفاء، من جِلَّة العلماء، ممن ساروا في طريق الله بجناحي الخوف والرجاء، وعبدوا الله تعالى بهما معا، وذاقوا طعميهما، ولم يُغلّبوا جانب الرجاء على الخوف إلا بعد حين من الدهر، عندما رأوا من آيات الإحسان والفضل ما فيه مدكر، فَسَمَوْا بأرواحهم فوق أشباحهم، فترقَّوا وارتفعُوا، ولم يَخْلُدوا إلى الأرض، وترفعوا عن زخارفها وزينتها، فطهرت قلوبهم، وصفت نفوسهم، واشتاقت أفئدتهم، فلم يرجُوا غير الله؛ إذ أنهم لم يشهدوا أحدا سواه، ورددوا قول الله جل وعلا::(فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا)(الكهف/١١٠).

اللهَ قُــلْ وذَرِ الوجــودَ وما حَوى إنْ كنــتَ مُرْتَـــادًا بُلوغَ كَمــالِ
فالكـــــلُّ دُونَ اللهِ إنْ حَقَّــــقْتَهُ عـــدمٌ علـى التفصــيلِ والإجمالِ

هذا، **وقد توصل البحث- بفضل الله ومنته- إلى النتائج الآتية:**

أولا- بلغ عدد الأقوال التي وقفت عليها في "أرجى آية في القرآن" واحدا وثلاثين قولا.

ثانيا- وضوح وجه الرجاء في بعض الآيات، وخفاؤه في آيات أخرى من دواعي التدبر، ومراجعة التفاسير.

ثالثا- جُل العلماء الذين أثبتوا هذا النوع من علوم القرآن، كان هدفهم الجمع، دون الاهتمام ببيان وجه الرجاء في الآيات، أو الوقوف على معانيها، لوضوحها بالنسبة لهم، أو لأن محلها كتب التفسير.

رابعا- المعيار الحقيقي في اعتداد أرجى آية في القرآن هو النص على ذلك، واشتمالها على معاني الرحمة والعفو والمغفرة واللطف ونحو ذلك، واتفاق وجه الرجاء فيها مع معناها وسياقها، وغلبة معنى الرجاء عند مقابلتها بمعنى الخوف أو الترهيب.

خامسا- اختار بعض العلماء بعض الآيات وعدها أرجى آية، وذلك بالنظر إلى معان إشارية، قد تخفى على العوام، بل على كثير من الخواص.

سادسا- إفادة الدعاة بآيات الرجاء هذه؛ لأنها تناسب المدعويين جميعا، على اختلاف درجاتهم، فمن الآيات ما يعد أرجى آية للموحدين، ومنها ما يعد للمؤمنين، ومنها ما يعد للعصاة، ومنهم ما يعد للعوام، ومنها ما يعد للخواص، وهكذا.

سابعا:تنوعت القراءات الواردة في آيات الرجاء على النحو الآتي:

١- عدول بعض القراءات عن صيغة المبني للفاعل إلى صيغة المبني للمفعول، والعكس، كما في "نُجازِي، ويُجازَى"، و"يَدْخُلون، ويُدْخَلون"، و"يُحَلَّون، ويَحْلَون"، وغيرها، وقد ذكرت أثرها في المعنى، والغرض من هذا في موضعه من البحث.

٢- تعدي الفعل بنفسه أو بالهمزة أو بالتضعيف، كما في (يَلبِسوا)، و(يُلْبسوا)، و(فتُذْكِرَ)، و(فَتُذَكِّر)، و(يُبْدِل)، و(يُبَدِّل)، وما يترتب على ذلك من معان ودلالات.

٣- الالتفات الواقع في بعض القراءات الواردة في آيات الرجاء، كما في(تنهون عنه نكفر)، و(يؤتوا وتؤتوا)، و(ولتعفوا ولتصفحوا) وغير ذلك.

ثامنا: أفادت بعض القراءات أحكاما لغوية، وأخرى دلالية، ذات تأثير على المعنى، والتفسير، على النحو الآتي:

١- مجيء الأمر باللام للمخاطب، والأصل عند النحاة أن يأتي بصيغة الأمر، لا بلام الأمر، وقد وقع ذلك في قراءة:(ولتعفوا ولتصفحوا)، مع عظيم المعنى

٢- تعلق بعض القراءات بالوقف والابتداء، كما في قوله:(يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا)، وقراءة (ولؤلؤ) بالخفض، وقد ذكرت ما فيه

٣- ترجيح معنى من معاني الآية، كما في قراءتي (يأتل، ويتأل).

٤- كثرة القراءات الواردة في أمر منهي عنه قد يكون ذلك تأكيدا على تركه من كل جهة، كما في قوله:(ولا يَقْتُلُون) وما ورد فيها من قراءات كثيرة.

٥- تعدد القراءات الواردة في الوعيد يعد تنوعا في درجات الترهيب، بحسب تنوع المخاطبين والمدعويين، كما في قوله:(يضاعف له العذاب) وما ورد فيها من قراءات.

كما أن تعدد القراءات الواردة في الوعد هو تنوع في درجات الترغيب، كما في (سنؤتيهم)، وما ورد فيه من قراءات.

تاسعا- أثر القراءات القرآنية (المتواترة والشاذة) في المعاني العامة للآيات، وفي معاني الرجاء خاصة، وتجلت تلك الآثار فيما يأتي:

١- تقريب الوعد بإيتاء الخير والأجر، كما في قراءة(سنؤتيهم) بدلا من سوف نؤتيهم.

٢- تكثير المعنى، والمبالغة فيه، كما في قراءة(سبَّاق بالخيرات) بدلا من سابق.

٣- بشارة الملائكة عند تنزلهم على المؤمنين، ويتجلى ذلك في القراءات الواردة في قوله:(ألا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا).

٤- القرب من الله تعالى، ودعاؤه، كما في قراءة "رب"بالإضافة وبغيرها.

٥- بيان سعة رحمة الله، وعلمه القديم بأحوال خلقه، كما في قراءة:(وليملل) و(أن يمل).

٦- إرادة الله التوبة على عباده، ودفاعه عنهم، كما في دلالة القراءة على الفرق بين المعنى الأصلي والمعنى المكتسب في(ميلا) بفتح الياء وسكونها.

٧- الإخبار بضعف الإنسان، ، كما في قراءة (وخلق الإنسان ضعيفا) ببناء الفعل للفاعل مرة والمفعول أخرى.

٨- يسر الدين، وهداية العباد إلى طرق الرشاد، والبعد عن الشهوات، كما في (إن تجتنبوا كبائر) وكبير.

٩- لتماس العذر عند ترك الفعل عمدا أو نسيانا، كما في القراءات الواردة في (أن تضل إحداهما فتذكر إحداهما الأخرى).

١٠-الحث على مواصلة الطريق إلى الله، وعدم الركون أو الاطمئنان التام، كما في قراءة (نكفر عنكم من سيئاتكم)بدخول "من".

١١-ترسيخ معنى"مضاعفة الأجر" كما في القراءات الواردة في (وإن تك حسنة نضاعفها).

١٢-فضل الله على قدر عظمته لا على قدر الإيمان به، ويتجلى ذلك في قراءة الفعل بالنون في "نؤتيهم" في قوله:(أولئك سوف يؤتيهم أجورهم).

عاشرا- إعجاز القراءات القرآنية يتجلى في توجيهها لغويا مع ربطها بالسياق، ومقابلة معناها الأصيل مع صفحات الواقع المعاصر، وما فيه من جديد، وقد ذكرت ذلك في قوله:(وأشهدوا إذا تبايعتم)، و كلام المفسرين على حكم الإشهاد عند التبايع معروف، ولم يخطر على بال واحد منهم أن الله يأمر المتبايعَين أن يحضرا بشخصيهما أو من ينوب عنهما، ويُفهم ذلك من قراءة: (واشهَدوا) أمْرٌ من شَهِدَ بمعنى حضر، فالتبايع من غير حضور المتبايعَيْن لم يكن معروفا قديما، وهو اليوم في-عالمنا المشهود- مشهور، وما خبر الحسابات الزائفة في الصفقات الخاسرة ببعيد!

فسبحان من هذا كلامه، والحمد لله الذي أنزل القرآن على سبعة أحرف!

وختاما أقول:هذا جهد المقل، فما كان فيه من صواب فهو من الله تعالى وتوفيقه، وما كان من خطأ فهو من تقصيري وسهوي، وحسبي أني اجتهدت، وفي كتاب الله نظرت، وفي رحمة الرحمن طمعت، والكريم إذا أطمع أطعم، والحمد لله رب العالمين!

أهم المصادر والمراجع

- القرآن الكريم.
- إتحاف فضلاء البشر في القراءات الأربعة عشر، المؤلف: أحمد بن محمد بن أحمد بن عبد الغني الدمياطيّ، شهاب الدين الشهير بالبناء (المتوفى: ١١١٧هـ)، المحقق: أنس مهرة، الناشر: دار الكتب العلمية – لبنان، ط: الثالثة، ٢٠٠٦م- ١٤٢٧هـ
- الإتقان في علوم القرآن، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم، الناشر: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط: ١٣٩٤هـ/ ١٩٧٤ م.
- الإضاءة في بيان أصول القراءة للشيخ محمد علي الضباع، مراجعة جمال شرف، دار الصحابة بطنطا، ط/الثانية، ١٤٢٢ه/٢٠٠٢م.
- أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، محمد الأمين بن محمد المختار بن عبد القادر الجكني الشنقيطي (المتوفى: ١٣٩٣هـ)، الناشر:دار الفكر، بيروت- لبنان:١٤١٥ هـ ١٩٩٥م..
- إعراب القراءات السبع وعللها-لابن خالويه، تح/عبد الرحمن بن سليمان العثيمين، نشر مكتبة الخانجي-القاهرة، ط/١، ١٩٩٢.
- البحر المحيط، أبو حيان الأندلسي، طبع مطابع النصر الحديثة، الرياض.
- التبيان في إعراب القرآن، للعكبري(ت٦١٦ه)، تح/علي محمد البجاوي، الناشر:عيسى البابي الحلبي، ط.د.ت
- بدائع الفوائد لابن القيم. (المتوفى: ٧٥١هـ)، الناشر: دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان.
- البرهان في علوم القرآن للزركشي، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم، ط: الأولى، ١٣٧٦ هـ- ١٩٥٧ م، الناشر: دار إحياء الكتب العربية عيسى البابى الحلبي وشركائه.
- البدور الزاهرة في القراءات المتواترة من طريقي الشاطبية والدرة، عبد الفتاح القاضي، نشر مكتبة المدينة المنورة، ط/١، ١٤٠٣ه..
- بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز، للفيروزآبادى (المتوفى: ٨١٧هـ)..
  تح: محمد علي النجار، الناشر: المجلس الأعلى للشئون الإسلامية- لجنة إحياء التراث الإسلامي، القاهرة، عام النشر:جـ ١، ٢، ٣: ١٤١٦ هـ- ١٩٩٦ م.
- البلاغة فنونها وأفنانها، علم البيان والبديع، د.فضل حسن عباس، ط/ الرابعة ١٤١٧ هـ / ١٩٩٧م، الناشر: دار الفرقان للنشر والتوزيع ـ الأردن.
- تأويل مشكل القرآن، لابن قتيبة(ت٢٧٦ه)، تح/السيد أحمد صقر.
- التحرير والتنوير=«تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد»لمحمد الطاهر بن محمد ابن محمد الطاهر بن عاشور التونسي (ت: ١٣٩٣هـ): الدار التونسية للنشر- تونس: ١٩٨٤ هـ.
- التعريفات للشريف الجرجاني، تح/مجموعة من العلماء، دار الكتب العلمية-بيروت-لبنان، ط/الأولى، ١٤٠٣ه/١٩٨٣م.
- تفسير الطبري المسمى: جامع البيان في تأويل القرآن، للإمام محمد بن جرير، أبي جعفر الطبري(ت

٣١٠هـ)، تح/أحمد محمد شاكر، الناشر: مؤسسة الرسالة، ط/ الأولى، ١٤٢٠ هـ- ٢٠٠٠ م

- تفسير القرآن العظيم (ابن كثير)،: لأبي الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير (المتوفى: ٧٧٤هـ)، تح: محمد حسين شمس الدين، دار الكتب العلمية، منشورات محمد علي بيضون – بيروت، ط: الأولى- ١٤١٩ هـ
- التفسير الوسيط للقرآن الكريم، محمد سيد طنطاوي، الناشر: دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، الفجالة – القاهرة، الطبعة: الأولى١٩٩٧م.
- تفسير المنتصر الكتاني، مصدر الكتاب: دروس صوتية قام بتفريغها موقع الشبكة الإسلامية.
- التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج(تفسير الزحيلي)، المؤلف: د وهبة بن مصطفى الزحيلي، الناشر: دار الفكر المعاصر – دمشق، ط: الثانية، ١٤١٨ هـ.
- حلية الأولياء، وطبقات الأصفياء، ، لأبي نعيم أحمد بن عبد الله الأصبهاني (المتوفى: ٤٣٠هـ)، الناشر: السعادة- مصر، ١٣٩٤هـ- ١٩٧٤م.
- تفسير الشعراوي (خواطر الشعراوي)، محمد متولي الشعراوي (المتوفى: ١٤١٨هـ)
 الناشر: مطابع أخبار اليوم.
- شرح المفصل لابن يعيش، وشرح شافية ابن الحاجب، للرضي، تح/محمد نور الحسن، محمد الزفزاف، محمد محيى الدين عبد الحميد-الناشر: دار الكتب العلمية بيروت – لبنان: ١٣٩٥ هـ- ١٩٧٥ م.
- ديوان أبي العتاهية، دار بيروت، سنة النشر: ١٤٠٦ – ١٩٨٦.
- ديوان أبي نواس، الحسن بن هانئ، تح/ إيفالد فاغنر، دارالنشر فرانز شتاينر- بفيسبادن، ١٣٩٢ ه/١٩٧٢م.
- ديوان الشافعي، تح/ محمد إبراهيم سليم، ص ١٣٤، ١٣٥الناشر: مكتبة ابن سينا.
- ديوان كثير عزة، جمعه وشرحه د/إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت-لبنان، ١٣٩١ه /١٩٧١م
- روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، شهاب الدين محمود بن عبد الله الحسيني الألوسي، (ت: ١٢٧٠هـ)، المحقق: علي عبد الباري عطية، دار الكتب العلمية، بيروت، ط/١، ١٤١٥ هـ.
- زاد المسلم فيما اتفق عليه البخاري ومسلم، محمد حبيب الله بن عبد الله بن أحمد الشنقيطي، الناشر: دار إحياء الكتب العربية- عيس البابي الحلبي وشركاه لأبي الجكني
- السبعة في القراءات، ا بن مجاهد، تح/شوقي ضيف، نشر دار المعارف، ط/٢، ١٤٠٠ه.
- سير أعلام النبلاء، شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد الذهبي (المتوفى: ٧٤٨هـ) الناشر: دار الحديث- القاهرة، لطبعة: ١٤٢٧هـ-٢٠٠٦م
- شرح الأربعين النووية في الأحاديث الصحيحة النبوية، المؤلف: تقي الدين أبو الفتح محمد بن علي بن وهب بن مطيع القشيري، المعروف بابن دقيق العيد (المتوفى: ٧٠٢هـ)
 الناشر: مؤسسة الريان، ط: السادسة ١٤٢٤ هـ- ٢٠٠٣ م.
- الشوارد، للصغاني، ، تح/مصطفى حجازي، نشر مجمع اللغة العربية بمصر، ط/١ لسنة١٩٨٣م.
- العواصم والقواصم في الذب عن سنة أبي القاسم، الإمام محمد بن إبراهيم الوزير، (ت ٨٤٠ هـ)تح: شعيب الأرنؤوط، الناشر: مؤسسة الرسالة، بيروت، ط: الثالثة، ١٤١٥ هـ- ١٩٩٤ م.

- غرائب التفسير وعجائب التأويل، أبو القاسم برهان الدين الكرماني (ت: ٥٠٥هـ)، دار النشر: دار القبلة للثقافة الإسلامية- جدة، مؤسسة علوم القرآن – بيروت.
- فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير(تفسير الشوكاني)، محمد بن علي الشوكاني، المكتبة العصرية، بيروت، ٢٠١٠ م-١٤٣١ه.
- الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل =تفسير الزمخشري لأبي القاسم محمود بن عمرو، الزمخشري جار الله (ت ٥٣٨هـ)، الناشر: دار الكتاب العربي – بيروت، ط/ الثالثة- ١٤٠٧ هـ.
- الكشف والبيان عن تفسير القرآن= تفسير الثعلبي، أحمد بن محمد الثعلبي، (ت: ٤٢٧هـ)، تح: الإمام أبي محمد بن عاشور، مراجعة وتدقيق: الأستاذ نظير الساعدي، الناشر: دار إحياء التراث العربي، بيروت – لبنان، الطبعة: الأولى ١٤٢٢، هـ- ٢٠٠٢ م.
- لسان العرب، لمحمد بن مكرم جمال الدين ابن منظور(ت: ٧١١هـ)، الناشر: دار صادر – بيروت، ط/٣- ١٤١٤ هـ.
- المحتسب في تبيين وجوه القراءات والإيضاح عنها، لأبي الفتح عثمان بن جني، تح/عبد الحليم النجار وآخرين، ط/المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، ط/٢، لسنة١٣٨٦-١٣٨٩ه/١٩٦٦م-١٩٦٩م.
- المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز(تفسير ابن عطية)٣٥٢/١، المؤلف: أبو محمد عبد الحق بن عطية الأندلسي المحاربي (المتوفى: ٥٤٢هـ)، تح: عبد السلام عبد الشافي محمد، الناشر: دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة: الأولى- ١٤٢٢ هـ.
- مختصر في شواذ القرآن، ابن خالويه، من كتاب البديع، نشره برجستراسر، طبع المطبعة الرحمانية، بمصر١٩٣٤م،
- مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين، محمد بن أبي بكر ابن قيم الجوزية (ت: ٧٥١هـ)، المحقق: محمد المعتصم بالله البغدادي، الناشر: دار الكتاب العربي – بيروت، الطبعة: الثالثة، ١٤١٦ هـ- ١٩٩٦م.
- معالم التنزيل في تفسير القرآن = تفسير البغوي، المؤلف: محيي السنة، أبو محمد الحسين بن مسعود البغوي (المتوفى: ٥١٠هـ)، تح محمد عبد الله النمر- عثمان جمعة ضميرية- سليمان مسلم الحرش، الناشر: دار طيبة للنشر والتوزيع، ط: الرابعة، ١٤١٧ هـ- ١٩٩٧ م.
- معاني القراءات للأزهري (المتوفى: ٣٧٠هـ)، الناشر: مركز البحوث في كلية الآداب- جامعة الملك سعود، المملكة العربية السعودية، ط: الأولى، ١٤١٢ هـ- ١٩٩١ م.
- المعجم الاشتقاقي المؤصل لألفاظ القرآن الكريم، لأستاذي الدكتور محمد حسن جبل /، مكتبة الآداب، القاهرة، ط/١، ٢٠١٠.
- معجم القراءات للدكتورعبد اللطيف الخطيب، دار سعد الدين للطباعة والنشر بالقاهرة.
- مغني اللبيب عن كتب الأعاريب، ابن هشام (المتوفى: ٧٦١هـ)، تح: د. مازن المبارك / محمد علي حمد الله، الناشر: دار الفكر – دمشق، ط: السادسة، ١٩٨٥.
- المفردات في غريب القرآن للراغب الأصفهانى (المتوفى: ٥٠٢هـ)، تح: صفوان عدنان الداودي، الناشر: دار القلم، الدار الشامية- دمشق بيروت، ط: الأولى- ١٤١٢ هـ.

- المكرر فيما تواتر من القراءات السبع وتحرر، للنشار، مكتبة مصطفى البابي الحلبي، ط/٢، ١٣٧٩/١٩٥٩/.
- المهذب في القراءات العشر وتوجيهها من طريق طيبة النشر، محمد سالم محيسن، نشر مكتبة الكليات الأزهرية، ط/٢، ١٣٨٩هـ/١٩٧٨م.
- نزهة الأعين النواظر في علم الوجوه والنظائر، لابن الجوزي، تح: محمد عبد الكريم كاظم الراضي، الناشر: مؤسسة الرسالة- لبنان/ بيروت، ط:١، ١٤٠٤هـ- ١٩٨٤م
- النشر في القراءات العشر، لابن الجزري، مراجعة:محمد علي الضباع، نشر المكتبة التجارية بمصر.

فهرس الموضوعات

ملخص البحث ١٢٦

المبحث الأول: الرجاء حقيقته وأهدافه، وموقف العلماء منه ١٣٤

أولًا: معنى الرجاء في اللغة، ثانيا: الرجاء اصطلاحًا.................................. ١٣٤

ثالثا: الرّجاءُ في القرآن الكريم:.. ١٣٥

رابعا: حقيقة الرجاء وعلامته:.. ١٣٧

خامسا: قيمة الرجاء وفضله:.. ١٣٨

سادسا: الفرق بين الرجاء والتمني:.. ١٣٩

سابعا: الفرق بين الرجاء والغرور: ١٤٠

ثامنا: فوائد الرجاء:.. ١٤١

تاسعا: أرجى آية في القرآن بين البرهان والإتقان:..................................... ١٤٥

المبحث الثاني: أرجى آية في القرآن في ضوء القراءات القرآنية ١٤٩

الموضع الأول:.. ١٤٩

الموضع الثاني:.. ١٥٦

الموضع الثالث:... ١٦٦

الموضع الرابع:.. ١٦٨

الموضع الخامس:... ١٨١

الموضع السادس:... ١٨٤

الموضع السابع: ١٨٩

الموضع الثامن:... ١٩١

الموضع التاسع: ١٩٢

الموضع العاشر:.. ١٩٣

الموضع الحادي عشر:... ١٩٤

الموضع الثاني عشر: ١٩٦

الموضع الثالث عشر:.. ١٩٨

الموضع الرابع عشر:.. ٢٠٠

الموضع الخامس عشر:.. ٢٠١

الموضع السادس عشر:.. ٢٠٦

الموضع السابع عشر:.. ٢١٧

الموضع الثامن عشر:.. ٢١٩

الموضع التاسع عشر:.. ٢٢٠

الموضع العشرون:... ٢٢١

الموضع الحادي والعشرون:... ٢٢٩
الموضع الثاني والعشرون: ٢٣٩
الموضع الثالث والعشرون:.. ٢٤١
الموضع الرابع والعشرون:.. ٢٤٣
الموضع الخامس والعشرون:... ٢٤٥
الموضع السادس والعشرون:... ٢٤٧
الموضع السابع والعشرون:.. ٢٥١
الموضع الثامن والعشرون:.. ٢٥٣
الموضع التاسع والعشرون:.. ٢٥٤
الموضع الثلاثون: ٢٥٦
الموضع الحادي والثلاثون:.. ٢٦٠
الخاتمة ٢٦٧
أهم المصادر والمراجع ٢٧٢
فهرس الموضوعات... ٢٧٧